جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بقنا
المجـــلة العلميـــة

بلاغة الإقناع في حوار النبـي ـ ﷺ ـ مع أزواجه ـ رضي الله عنهن ـ

إعداد

د/ عاطف محمود عبدالجواد علي

مدرس البلاغة والنقد
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بقنا

(العدد العشرون ٢٠٢٣م)

بلاغة الإقناع في حوار النبي ــ ﷺ ــ مع أزواجه ــ رضي الله عنهن ــ

عاطف محمود عبدالجواد علي
قسم البلاغة والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنين بقنا، جامعة الأزهر، قنا، مصر.
البريد الإلكتروني: AtefAli.4119@azhar.edu.eg

ملخص البحث:

يهدف البحث إلى رصد المسالك البلاغية لأساليب الإقناع في حوار النبي ــ ﷺ ــ مع أزواجه ــ رضي الله عنهن ــ ، وكيف شاركت تلك المسالك في تحقيق أسمى درجات التواصل الفكري والوجداني، فنتج عنها التأثر ثم الإقناع .

وقد كان المنهج التحليلي هو الأنسب لهذه الدراسة، من خلال تحليل الحوار والوقوف على الآليات البلاغية التي نسج عليها النبي ــ ﷺ ــ أسلوب الإقناع، ومدى استدعاء مقتضى الحال له، ومدى وفائه بغرض الكلام، وأثر ذلك في نفس الزوجة رضا وتسليما.

وقد تشكل بناء البحث من مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة، ففي التمهيد وقف البحث مع ثلاثة محاور، أولها: مفهوم الإقناع لغة واصطلاحا، صلة الإقناع بالحوار، وثانيها: بلاغة الإقناع في التراث العربي، الجاحظ وكتابه البيان والتبيين أنموذجا ، وآخرها: الآليات البلاغية للإقناع في حوار النبي ــ ﷺ ــ مع أزواجه، أما المبحث الأول فهو بعنوان: بلاغة الإقناع في سياق الغيرة، وأما المبحث الثاني فهو بعنوان: بلاغة الإقناع في سياق تطييب خاطر الزوجة المعتدى عليها، أما المبحث الثالث فهو بعنوان: بلاغة الإقناع في سياق الإرشاد والتعليم.

ثم أبانت خاتمة البحث عن عدة نتائج من أهمها أن بلاغة الإقناع جزء أصيل من البلاغة العربية، فهي ترتكز ارتكازًا أصيلًا على حال المخاطب، وما يقتضيه مقامه، وما يطلبه من مقال، وأن أساليب التوكيد، والاستفهام، والطباق، والمقابلة، والتقديم

والتأخير، والإيجاز، وحسن الختام من أكثر الأساليب البلاغية التي وظفت في سياقات حوار النبي ــ ﷺ ــ مع أزواجه ـــ رضي الله عنهن ـــ لإقناعهن.

الكلمات المفتاحية: بلاغة، الإقناع، حوار، أزواج النبي، أساليب الإقناع.

The eloquence of persuasion in the dialogue of the Prophet - may God bless him and grant him peace - with his wives - may God be pleased with them .

Atef Mahmoud Abdel-Gawad Ali
Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Islamic and Arabic Studies for Boys, Qena, Al-Azhar University, Qena, Egypt.
Email: AtefAli.4119@azhar.edu.eg

Abstract:

The research aims to monitor the rhetorical paths of the methods of persuasion in the dialogue of the Prophet - may God bless him and grant him peace - with his wives, may God be pleased with them, and how those paths participated in achieving the highest degrees of intellectual and emotional communication, which resulted in influence and then persuasion.

The analytical approach was the most appropriate for this study, through analyzing the dialogue and identifying the rhetorical mechanisms upon which the Prophet - may God bless him and grant him peace - used the method of persuasion, the extent to which the situation called for it, the extent to which it fulfilled the purpose of the speech, and the effect that had on the wife's soul, satisfaction and peace.

The structure of the research consisted of an introduction, a preface, three sections, and a conclusion. In the introduction, the research focused on three axes, the first of which was: the concept of persuasion in language and terminology, the connection of persuasion to dialogue, and the second of which was: the rhetoric of persuasion in the Arab heritage, Al-Jahiz and his book Al-Bayan wal-Tabyin as an example, and the last of them: mechanisms. The

rhetoric of persuasion in the Prophet's dialogue with his wives. The first section is entitled: The rhetoric of persuasion in the context of jealousy. The second section is titled: The rhetoric of persuasion in the context of sweetening the mind of the assaulted wife. The third section is titled: The rhetoric of persuasion in the context of guidance. And education.

Then the conclusion of the research showed several results, the most important of which is that the rhetoric of persuasion is an integral part of Arabic rhetoric, as it is fundamentally based on the state of the addressee, what his position requires, and what he asks for from an essay, and that the methods of emphasis, interrogation, counterpoint, contrast, introduction and delay, and brevity, Good conclusion is one of the most rhetorical arts employed in persuasion methods.

It should be noted that the prophet's dialogue with his spouses - may Allah please them - came in several contexts, including: the context of joke, the context of palliative and the context of the annunciation, the context of jealousy, the context of wife-risk healing, the context of mentoring, education and other contexts.

Keywords: Rhetoric, Persuasion, Dialogue, The wives of the Prophet, Methods of persuasion.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله وكفى، وصلاة وسلامًا على عبده ونبيه المصطفى والمُجتَبى محمد ــ ﷺ ــ وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن سار على نهجهم وسلك طريقهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد ،،،

فإن الإقناع فن من الفنون التي لا غنى عنها في حياتنا، لاسيما حينما نحاور من يعنينا شأنه في أمر نحتاج فيه إلى تعديل سلوكه أو قبوله لفكرة أو اعتقاده لشيء إيجابًا أو سلبًا، أو نحو ذلك من الأمور التي تحتاج إلى اقتناع ورضا وتسليم.

وللإقناع طرفان أساسيان هما المتكلم والمتلقي، ولكي يصل المتكلم بالمتلقي إلى درجة الاقتناع عليه أن ينسج أدلة الإقناع على منوال البلاغة، فيتخير لها من اللفظ أحسنه، ومن السبك أجوده، ومن العرض أجمله، ويضع ذلك كله في حوار هادئ هادف؛ حتى يتسرب كلامه إلى الآذان بلا استئذان، فيملك القلوب، ويسترق الأفهام، فيصدر عن ذلك الرضا والاستحسان.

ولا شك أن الله ــ عز وجل ــ أكمل لنبيه محمد ــ ﷺ ــ خَلْقه وخُلُقه، فكان ــ ﷺ ــ أفضل الناس خلقًا وأدبًا، وأحسنهم منطقًا وبيانًا، وآتاه فصل الخطاب، وجوامع الكلم، ونوابغ الحكم، وسخر له الألفاظ، وملّكه أعناق المعاني وأزمة البلاغة والبيان، فنسج ــ ﷺ ــ بحسن بيانه حلل التأثير والإقناع، وكسا بها حواره مع أزواجه أمهات المؤمنين ــ رضي الله عنهن جميعا ــ رغبة منه في الوصول بهن إلى الرضا والإذعان؛ ليعيش البيت النبوي هانئًا سعيدًا، فكان ــ ﷺ ــ مع أزواجه ــ رضي الله عنهن ــ خير زوج عشرة وصحبة وأنسًا وألفة ، وهو القائل ــ ﷺ ــ عن نفسه "خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا

خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي" [1] فعاش ــ ﷺ ــ حياة طيبة، فكان جميل العشرة، دائم البِشْر، يمازحهن ويلاطفهن في السراء، ويسمع شكواهن، ويكفكف دموعهن في الضراء، ويحاورهن فيصغى إلى حديثهن بإنصات، ثم يقنعهن بحسن حجاجه وبجميل بيانه، ويراعي مشاعرهن بلطف عباراته، فيبلغ كلامه مجامع القلوب.

وللإقناع في الحوار الزوجي بالغ الأثر في تقوية أواصر الحياة الزوجية، وتحقيق المودة والسكينة والاستقرار الأسري، وحماية الأسرة من التفكك والشقاق ؛ إذ الأسرة هي النواة الأولى في بناء المجتمع المسلم، بصلاحها تصلح الأمة، وبانهيارها وترديها تضعف الأمة، ومن هنا كانت الحاجة ماسة إلى تسليط الضوء على هذا النوع من الحوار وإبراز جماليات أساليب الإقناع، وأثر ذلك في استقرار البيت النبوي، ليكون عونًا للأزواج للاقتداء برسول الله ــ ﷺ ــ ، ومن هذا المنطلق خرج هذا البحث الموسوم بـ (**بلاغة الإقناع في حوار النبي ــ ﷺ ــ مع أزواجه ــ رضي الله عنهن**) .

يهدف البحث إلى رصد المسالك البلاغية لأساليب الإقناع في حوار النبي ــ ﷺ ــ مع أزواجه ــ رضي الله عنهن ــ والكشف عن شيء من أسرارها، وكيف امتزجت مع نمط حواره دون تكلف أو شطط ، وكيف حققت أسمى درجات التواصل الفكري والوجداني.

وقد كان المنهج التحليلي هو الأوفق والأنسب لهذه الدراسة، من خلال تحليل الحوار والوقوف على الآليات البلاغية التي نسج عليها النبي ــ ﷺ ــ أسلوب إقناعه،

---

(١) سنن ابن ماجه، للإمام أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني المشهور بابن ماجة، تح: شعيب الأرنؤوط وآخرون، باب حسن العشرة، ج٣/ ص١٤٨، حديث رقم (١٩٧٧) ــ ط: دار الرسالة العالمية، ط: الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.

ومدى استدعاء مقتضى الحال لها، ووفائها بغرض الكلام ، وأثر ذلك في نفس الزوجة رضًا وتسليمًا.

وتجدر الإشارة ــ قبل الشروع في تقسيم هذا البحث ــ إلى أن حوار النبي ــ ﷺ ــ مع أزواجه ــ رضي الله عنهن ــ جاء في سياقات عدة منها: سياق الممازحة، وسياق الملاطفة وسياق البشارة، وسياق الغيرة، وسياق تطييب خاطر الزوجة، وسياق الإرشاد والتعليم وغيرها من السياقات الأخرى.

لكنني قصرت البحث على سياقات الغيرة وتطييب الخاطر والإرشاد والتعليم؛ لأن هذه السياقات هي التي تستدعي توظيف أساليب الإقناع؛ فالغيرة تحتاج إلى دليل ساطع يخمد نارها، وتطييب خاطر الزوجة المعتدى على حقها يتطلب برهانا مشرقا باهرا، يزيل أثر جرح العدوان من نفسها، ويمسح بيد حانية على جراحها، والإرشاد والتعليم يستدعي الإفهام والإقناع؛ لتُقبل الزوجة على تعلم المعروض والعمل به إقبال الراغب المتشوق؛ لهذا بُني هيكل البحث من هذه السياقات الثلاثة.

هذا، وقد اقتضت طبيعة البحث أن ينتظم في مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة:

أما المقدمة: ففيها الحديث عن أهمية الموضوع، ومنهجه، وخطته.

وأما التمهيد: فقد تضمن ثلاثة محاور:

المحور الأول: الإقناع لغة واصطلاحا، صلة الإقناع بالحوار.

المحور الثاني: بلاغة الإقناع في التراث العربي، الجاحظ وكتابه البيان والتبيين أنموذجًا.

المحور الثالث: الآليات البلاغية للإقناع في حوار النبي ــ ﷺ ــ مع أزواجه.

المبحث الأول: بلاغة الإقناع في سياق الغيرة.

المبحث الثاني: بلاغة الإقناع في سياق تطييب خاطر الزوجة المعتدى على حقها.

المبحث الثالث: بلاغة الإقناع في سياق إرشاد وتعليم الزوجة.

الخاتمة:وقد أودعت فيها أهم النتائج،والتوصيات،ثم المصادر والمراجع،ثم الفهارس.

تمهيد

وفيه ثلاثة محاور :

المحور الأول

مفهوم الإقناع لغة واصطلاحاً، صلته بالحوار

أولًا: الدلالة اللغوية للإقناع :

بالبحث والتنقيب في المعاجم اللغوية لمعرفة الدلالة اللغوية للفظة الإقناع وجدت أن الجذر اللغوي لمادة (ق ن ع) يدور حول عدة معان، منها: الإقبال على الشيء والرضا به، وهذا المعنى هو الأدق والأليق في تحديد فكرة هذا البحث، وهذا يجعلنا نوجه النظر نحوه، ونعمل الفكر فيه دون غيره.

يقول ابن فارس:" القاف والنون والعين أصلان صحيحان، أحدهما يدل على الإقبال على الشيء، ثم تختلف معانيه مع اتفاق القياس، والآخر يدل على استدارة في شيء. فالأول الإقناع: الإقبال بالوجه على الشيء. يقال: أقنع له يقنع إقناعًا... ويقولون: قنع قناعة، إذا رضي. وسميت قناعة لأنه يقبل على الشيء الذي له راضيًا. " (١)

يقول ابن منظور" قنع: قنع بنفسه قَنَعًا وقَناعة: رضي،... وحكى ثعلب: رجل قُنْعانٌ مَنْهاةٌ يُقْنَعُ لرأيه ويُنْتهى إلى أمره،... وقد قَنِع، بالكسر، يقنع قناعة، فهو قَنِعٌ وقَنُوعٌ "(٢)

(١) معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس. تح : عبد السلام هارون، ج ٦/ص ٤ ،٥ مادة (ق ن ع) ، ط : دار الفكر. ط : ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

(٢) ينظر لسان العرب لابن منظور ج٨ /ص٢٩٧وما بعدها ، مادة (ق ن ع) ــ ط: دار صادر ــ بيروت ــ ط: الثالثة ١٤١٤ هـ .

وفي المعجم الوسيط" (قنع) قنعا وقناعة رضي بما أعطى،..،و(اقتنع) قنع، وبالفكرة أو الرأي قبله واطمأن إليه" [١]

وهذا المعنى اللغوي يقودنا إلى المعنى الاصطلاحي؛ لأن المعنى اللغوي هو مصدر الاصطلاح عند أهل كل فن من الفنون.

ثانياً: المعنى الاصطلاحي للإقناع:

ومن التعريفات الاصطلاحية للإقناع: عرفه صاحب منهاج البلغاء وسراج الأدباء بأنه " حمل النفوس على فعل شيء أو اعتقاده، أو التخلي عن فعله واعتقاده "[٢]

وعرفه د/ إبراهيم بن صالح " فعل متعدد الأشكال يسعى لإحداث تأثير، أو تغيير معين في الفرد أو الجماعة " [٣]

بالنظر والتأمل في التعريفين السابقين تبين لي قصورهما في توصيف عملية الإقناع فهما يفتقدان العنصر الرئيس للإقناع، وهو عنصر الرضا والقبول والطمأنينة، وقد أوضح التأصيل اللغوي للفعل "قنع" أن كتب المعاجم أكدت على هذا العنصر الرئيس.

وعلى هذا يمكن نقد تعريف حازم القرطاجني " حمل النفس على فعل شيء أو اعتقاده أو التخلي... " بأنه قد تُحمل النفس بطريق الإكراه بأي وسيلة من وسائل التهديد على فعل الشيء أو التخلي عنه، وهذا لا يعد إقناعًا، إنما هو خنوع واستكانة، فلو أضاف إليها برضًا وطمأنينة لكان التعريف أجمع وأمنع.

---

(١) المعجم الوسيط تأليف: مجمع اللغة العربية بالقاهرة (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار) ج٢/ص٧٦٣ مادة (ق ن ع) ط : دار الدعوة .

(٢) منهاج البلغاء وسراج الأدباء تح :محمد الحبيب ص٢٠ــ ط : دار الغرب الإسلامي ــ ط: ١٩٨٦م.

(٣) بحث الإقناع والتأثير دراسة تأصيلية دعوية. د/ إبراهيم بن صالح الحميدان. ص٢٤٧ مجلة جامعة الإمام. (العدد ٤٩) محرم ١٤٢٦هـ.

كما يمكن نقد تعريف د/ إبراهيم" فعل متعدد الأشكال يسعى لإحداث تأثير أو تغيير... " بأنه قد يحدث التأثير أو التغيير لدى الفرد أو الجماعة ليس عن قناعة ورضا بما يقومون به، وإنما قد يفعلون ذلك مراعاة لشعور الطرف الآخر الراغب في التغيير، وهذا لا يعد إقناعًا، بل هو إذعان ورضوخ.

ومن هنا يمكننا أن نضع تعريفًا يوائم المعنى اللغوي للإقناع، فنقول: " هو عرض المتكلم رأيه بأسلوب مرتب، مشتمل على حجج وبراهين تعضده؛ رغبة في قبول الطرف الآخر للرأي برضًا وطمأنينة "

ثالثًا: صلة الإقناع بالحوار:

الحوار الهادئ الهادف يعد أرقى أنواع التواصل، وهو البيئة المثلى لغرس دعائم الإقناع في النفوس، والعمل على تغيير اتجاهاتها وسلوكها وفكرها واعتقادها، فبالإقناع يستميل المتكلم قلب محاوره، ويجذب انتباهه، ويملك عقله، ويستخرج ما في نفسه من خطأ التصور أو الاعتقاد تجاه القضية المتحدث عنها، كل ذلك بالحجج الساطعة، والبراهين المقنعة المنسوجة على منوال البلاغة العالية للوصول به إلى الإقناع والتأثير.

يقول أحد الباحثين كاشفًا عن العلاقة الوثيقة بين الحوار والإقناع" إن الخطاب النبوي يأخذ صفة الحوارية في كثير من الأحيان لمحاججة المتلقي؛ من أجل تعديل فكرة، أو تغيير موقف، أو بناء رأي جديد، أو إزالة معتقد أو عرف قديم من خلال عدد من القرائن البلاغية واللغوية التي تخدم الغرض"[1] وما ذكره الباحث هو الإقناع بطريق الحوار.

(١) بحث بعنوان" دراسة بلاغية للأبعاد الحجاجية في الخطاب النبوي الصورة أنموذجا" د/ عزة أحمد مهدي مجلة الآداب والعلوم الإنسانية ، كلية الآداب جامعة المنيا، المجلد ٨٨ ص١٤٩ ــ لعام ٢٠١٩م.

وبقدر تملك المحاور لآليات الحوار وتمكنه من عرض البراهين والدوافع المقنعة تخرج محصلة الإقناع لدى المتلقي، ومن ثم يحدث التغيير الفكري والسلوكي، فيظهر أثر الإقناع على المتلقي.

المحور الثاني

بلاغة الإقناع في التراث العربي، الجاحظ وكتابه البيان والتبيين أنموذجاً

سنقف مع بلاغة الإقناع في التراث العربي وقفات موجزات؛ لأن البحث ليس معنيًّا بالتأصيل التاريخي المفصل لنظرية بلاغة الإقناع في البلاغة العربية، إنما الغرض الرئيس لهذا العرض الموجز هو تسليط الضوء على أصالة بلاغة الإقناع في التراث العربي.

لم تقف البلاغة العربية عند حد الإمتاع من خلال عرض الصورة وتحسينها، ونظم الكلام نظمًا دقيقًا يمتع النفس، بل كان لها حد آخر، هو الإقناع القائم على الاستدلال وإقناع المتلقي بفحوى الخطاب؛ لاستمالة فكره والتأثير عليه، وتوجيه سلوكه إيجابًا أو سلبًا نحو القضية المتحدث عنها، يقول د/ مسعود بودوخة " لقد كان للحجاج حضوره في البلاغة العربية التي شكل البرهان والإقناع أحد أهم مباحثها، ويمكن القول: إن البلاغة العربية ظل يتجاذبها جانبان أساسيان، هما جانب التواصل والإبلاغ، وجانب الفن والجمال"(١)

فبلاغة الإقناع جزء أصيل من البلاغة العربية، ويتضح ذلك جليًا من خلال تعريف البلاغة بقولهم:" مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته" (٢) فقد اعتمدت البلاغة

(١) البلاغة العربية بين الإمتاع والإقناع د/ مسعود بودوخة ص١٢٦ــ ط: دار الكتب العلمية بيروت ــ ط: الأولى .

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني تح: محمد عبد المنعم خفاجي ج١ /ص ٤١ ــ ط : دار الجيل – بيروت ــ ط: الثالثة.

العربية اعتمادا رئيسا على المقام والمخاطب، وأن يعتبر المتكلم حال المخاطب من حيث مطابقة الكلام للمقام وللحال ولثقافة المتلقي، وهذا هو جوهر بلاغة الإقناع، فكل كلام يفتقد عنصرًا من تلك العناصر هو قول غير مقنع بأي حال من الأحوال.

ويشرح الشيخ عبد الرحمن حبنكة التعريف السابق للبلاغة، فيقول "ولما كانت أحوال المخاطبين مختلفة، وكانت كل حالة منها تحتاج طريقة من الكلام تناسبها، كانت البلاغة في الكلام تستدعي انتقاء الطريقة الأكثر ملاءمة لحالة المخاطب به، لبلوغ الكلام من نفسه مبلغ التأثير الأمثل المرجو." [(١)] والتأثير في النفوس إيجابًا أو سلبًا عن طمأنينة وقبول هو غاية الإقناع، وهدفه الأسمى.

ولتحقيق غرض الإيجاز في هذا المحور نكتفي بالوقوف مع علم من أعلام البلاغة العربية، كان رائدًا في تأسيس بلاغة الإقناع، وهو أبو عثمان الجاحظ، يقول د/ عبدالعالي قادا عن ريادة الجاحظ " فإذا كانت البلاغة قد توزعها تياران بارزان: تيار الإمتاع ...وتيار الإقناع... فقد اعتبر الجاحظ مؤسس التيار الثاني وواضع خصائصه"[(٢)]

*** الجاحظ، وتأصيله لبلاغة الإقناع في كتابه البيان والتبيين:**

لأبي عثمان الجاحظ إسهامات جليلة في عرض بلاغة الإقناع، والتأكيد على أهميتها، يقول د/ محمد العمري " إن تحليل استراتيجية كتاب البيان والتبيين للجاحظ يكشف بكل وضوح أن هذا الكتاب محاولة لوضع نظرية لبلاغة الإقناع مركزها الخطاب اللغوي الشفوي"[(٣)]

(١) البلاغة العربية لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني ج١/ ص١٢٩ ــ ط : دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت ــ ط: الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

(٢) بلاغة الإقناع دراسة نظرية وتطبيقية د/ عبدالعالي قادا. ص ١١٧ــ ط: دار كنوز المعرفة للنشر والتوريع ، عمان ــ ط: الأولى ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦.

(٣) المقام الخطابي والمقام الشعري في الدرس البلاغي ص١١ مجلة (دراسات سيميائية أدبية لسانية) العدد الخامس، سنة ١٩٩١

وقد ربط الجاحظ عملية الإقناع بالبلاغة في كثير من مواضع كتابه البيان والتبيين.

وأذكر من ذلك موضعين ــ حتى لا يطول البحث ــ ومن أراد المزيد فليراجع هذا السفرالجليل في فنه، فأول هذين الموضعين قوله : " وقال بعض أهل الهند: جماع البلاغة البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة. ثم قال: ومن البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة، أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها، إذا كان الإفصاح أوعر طريقة، وربما كان الإضراب عنها صفحا أبلغ في الدرك، وأحق بالظفر."[١]

فبلاغة الإقناع تعتمد اعتمادًا أصيلًا على الحجة ومعرفة مواضع الفرص، وطريقة عرض الحجة وزمن إلقائها، وهذا هو لب بلاغة الإقناع وجماعها. وثانيهما : قوله: " ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلامًا ولكل حالة من ذلك مقامًا حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات. "[٢] وهو بهذا يؤكد على العلاقة الوطيدة بين الإقناع والمقام ومراعاة حال المخاطب، يقول د/ عبداللطيف عادل معلقًا على كلام الجاحظ السابق " فالقول لا يقنع إذا لم يكن موجها مكيفًا بحسب الحاجات الخاصة التي تقتضيها فئات المخاطبين..، فمدار الأمر على إفهام كل قوم بقدر طاقتهم والحمل عليهم على قدر منازلهم...،فالقول المقنع لا يكون غفلًا بل حاملًا لانتظارات المتلقين"[٣].

(١) البيان والتبيين ج ١/ص ٩٢،ط: دار ومكتبة الهلال، بيروت ــ ط: ١٤٢٣ هـ .

(٢) المرجع السابق ١/ ١٣١.

(٣) بلاغة الإقناع في المناظرة د/ عبداللطيف عادل ص٦٦ ــ ط: منشورات ضفاف بيروت ، لبنان ــ ط: الأولى ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.

بهذين الموضعين يتضح لنا أن الجاحظ في هذا الكتاب بذل جهدًا واضحًا في التأسيس لبلاغة الإقناع، استحق به أن يكون رائدًا للبلاغة العربية عامة ولبلاغة الإقناع خاصة.

المحور الثالث

الآليات البلاغية للإقناع في حوار النبي ــ ﷺ ــ مع أزواجه

الفنون البلاغة ليست هي الحجج والبراهين التي توصل المتلقي إلى الإقناع، وإنما هي آلات لها أثر رئيس ودور فاعل في إثراء الخطاب، وإقناع المتلقي من خلال تخير الألفاظ، وطرق النظم، وجودة السبك، وترتيب الأفكار، وحسن العرض؛ لتصير البراهين أكثر تأثيرًا في النفوس، وسيجلي التحليل البلاغي المفصل جميع الآليات البلاغية التي اعتمد عليها الحوار النبوي في عرض أدلة الإقناع، ونعرض في هذا المحور أكثر وأهم الآليات البلاغية التي اعتمد عليها في عملية الإقناع، فمن أهمها ما يلي.

أولًا ــ التوكيد :

تعد أساليب التوكيد عاملًا رئيسًا في بلاغة الإقناع، فقلما تخلو السياقات الثلاثة للبحث من دلالة توكيدية؛ لأن كل فن من فنون البلاغة العربية يحتوي معناه على شيء من دلالة التوكيد، ويأتي التوكيد في هذه السياقات تارة بالأسلوب وتارة بالأداة، ومن ذلك قوله ــ ﷺ ــ لأم سلمة ــ رضي الله عنها ــ « لاَ تُؤْذِينِى فِي عَائِشَةَ ؛ فَإِنَّ الْوَحْىَ لَمْ يَأْتِنِى، وَأَنَا فِي ثَوْبِ امْرَأَةٍ إِلاَّ عَائِشَةَ» [1] أكد الكلام بأسلوب القصر بطريق النفي والإثبات، مشيرًا به

(١) صحيح البخاري، لأبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، تح: محمد زهير بن ناصر الناصر، باب من أهدى إلى صاحبه وتحرى بعض نسائه دون بعض .ج٣ /ص ١٥٦، حديث رقم (٢٥٨١) الناشر: دار طوق النجاة ــ ط : الأولى، ١٤٢٢هـ .

إلى تفرد عائشة ــ رضي الله عنها ــ وحدها دون غيرها من نسائه بتلك المنقبة، وهذا المهيع التوكيدي يتساوق مع الإقناع في سياق الغيرة الذي يحتاج إلى الدفع بالحجج التي لا تدع مجالًا للشك أو الإنكار أو ما ينزل منزلتهما، فلو قال ــ ﷺ ــ (فقد نزل على الوحي في ثوبها) لم يكن فيه معنى الاختصاص، ومن ثَم تفقد الحجة قوتها، ويصير الكلام على سبيل الإخبار الذي لا ينسجم مع مقام الغيرة وبيان فضل عائشة على بقية نسائه ــ رضي الله عنهن جميعا ــ .

ومن التوكيد بالأداة ما جاء في حواره مع عائشة ــ رضي الله عنها ــ حين تتبعته ظنا منها أنه تركها، وذهب لإحدى نسائه، فقال ــــ ﷺ ــــ « لَتُخْبِرِنِي أَوْ لَيُخْبِرَنِّي اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ. . .قَالَتْ: "مَهْمَا يَكْتُمِ النَّاسُ يَعْلَمْهُ اللهُ، نَعَمْ، قَالَ: " فَإِنَّ جِبْرِيلَ أَتَانِي حِينَ رَأَيْتِ، فَنَادَانِي فَأَخْفَاهُ مِنْكِ، فَأَجَبْتُهُ، فَأَخْفَيْتُهُ مِنْكِ، وَلَمْ يَكُنْ يَدْخُلُ عَلَيْكِ وَقَدْ وَضَعْتِ ثِيَابَكِ، وَظَنَنْتُ أَنْ قَدْ رَقَدْتِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَكِ وَخَشِيتُ أَنْ تَسْتَوْحِشِي، فَقَالَ:إِنَّ رَبَّكَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَ أَهْلَ الْبَقِيعِ فَتَسْتَغْفِرَ لَهُمْ. . . » [1] تأمل كثافة التوكيد بالأدوات" اللام ، نون التوكيد الثقيلة، إن، قد " هذا التوكيد جاء بعضه تبعًا لانفعاله ــ ﷺ ــ بكلامه، وبعضه لإزالة ما علق في نفس زوجته ــ رضي الله عنها ــ من شك في سبب خروجه ليلا، وكل توكيد يؤدي دوره الفاعل في إقناع الزوجة، وسنجلي ذلك بالتفصيل ــ إن شاء الله ــ في موضعه التحليلي.

ثانياً ــ الاستفهام :

اعتمد حوار النبي ــ ﷺ ــ مع أزواجه اعتمادًا أصيلًا على الاستفهام بصورتيه الحقيقية والمجازية، واتخذه كأداة من أدوات الإقناع والتأثير في عرض البراهين

(١) صحيح مسلم ، للإمام مسلم بن الحجاج، تح محمد فؤاد عبدالباقي ج ٢/ص ٦٦٩،باب ما يقال عند دخول المقابر، حديث (٩٧٤) ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت .

والحجج، ومن ذلك ما ورد في حواره مع زوجته عائشة ــ رضي الله عنها ــ قَائلًا لها: " أَظَنَّتِ أَنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْكِ وَرَسُولُهُ؟ " [1] في هذه الفقرة من الحوار اتخذ ــ ﷺ ــ من الاستفهام الإنكاري التعجبي أداة بلاغية لإقناع زوجته بخطأ تصورها في أنه ــ ﷺ ــ خرج من عندها في ليلتها ليذهب إلى إحدى نسائه، وتكمن قوة الاستفهام أن محل الإنكار والتعجب هو الله ورسوله، فكيف تظن أن يحيف الله ورسوله عليها! وما كان ينبغي أن يصدر هذا منها، ولا شك أن هذا الأسلوب يجعل الزوجة تلوم نفسها، وتستقبح فعلها، وهذا يسوقها إلى الاقتناع بالخطأ الذي بدر منها.

ومن ذلك ــ أيضا ــ اعتماده على الاستفهام التقريري حينما اشتكت إليه زوجته جويرية ــ رضي الله عنها ــ أن نساءه يفخرن عليها، ويقلن: إن رسول الله ــ ﷺ ــ لم يتزوجك إنما أنت ملك يمين، فقال ــ ﷺ ــ « أَلَمْ أُعْظِمْ صَدَاقَكِ ؟ أَلَمْ أُعْتِقْ أَرْبَعِينَ مِنْ قَوْمِكِ ؟ »[2] جاء رده الشريف مستندًا على أدلة الإقناع في صورة استفهام تقريري؛ لتقر بصحة تلك الوقائع التي تؤكد حريتها، وتدحض شبهة نسائه ــ رضي الله عنهن ــ وإقرار المتلقي بصدق الحجة المستفهم عنها أقوى دلالة، وأعمق تأثيرًا في النفس من العرض الخبري للحجة.

ثالثًا ــ بنية التضاد :

اتخذ الحوار النبوي من بنية التضاد بين الألفاظ والمعاني والأحداث آلية بلاغية نسج عليها أدلة الإقناع التي تنسجم مع مقام الحوار، فالتضاد في الحوار النبوي جيء

(١) صحيح مسلم ، ج ٢/ص ٦٦٩.

(٢) المستدرك على الصحيحين للإمام أبي عبد الله الحاكم، تح: مصطفى عبد القادر عطا، ج ٤/ص ٢٧. ذكر جويرية رضي الله عنها ،حديث رقم (٦٧٧٨) ــ ط : دار الكتب العلمية – بيروت ــ ط : الأولى، ١٤١١هـ/١٩٩٠ م ، وقال عنه الألباني إسناده مرسل صحيح.

به للموازنة بين صورتين أو موقفين متناقضين، ليصدر المتلقي من تلقاء نفسه حكمه بعد الموازنة بينهما، وتتجلى تلك الخاصية في كثير من شواهد الحوار النبوي مع أزواجه رغبة في إقناعهن، ومن ذلك ما ورد في سياق رده على عائشة ليقنعها بفضل خديجة ــ رضي الله عنهما ــ فقد عرض ــ ﷺ ــ مواقف خديجة في تشكيل بلاغي قائم على ثنائية التضاد؛ لينقل صورة الصراع الذي عاشته ــ رضي الله عنها ــ وأن هذه المواقف هي التي ترقت بها إلى تلك المكانة العظمى في حياته، فقال : «مَا أَبْدَلَنِي اللَّهُ خَيْرًا مِنْهَا، قَدْ آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ بِي النَّاسُ وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ، وَوَاسَتْنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ، وَرَزَقَنِي اللَّهُ وَلَدَهَا إِذْ حَرَمَنِي أَوْلَادَ النِّسَاءِ» [1] انظر كيف اعتمد ــ ﷺ ــ على بنية التضاد؛ ليثبت بالدليل القاطع والبرهان الساطع فضل أم المؤمنين خديجة على الناس جميعا في السبق والعطاء، ثم تأمل أثر هذه البنية في نفس عائشة التي لم تمتلك سوى التسليم بفضل خديجة ــ رضي الله عنهما ــ عن اقتناع ورضا.

ومنه ــ أيضا ــ في سياق الإرشاد والتعليم قوله لعائشة ــ رضي الله عنها ــ حينما قال اليهود للنبي ــ ﷺ ــ " السام عليك " أي الموت، فردت عليهم عائشة وأغلظت القول لليهود فقال لها النبي ــ ﷺ ــ مرشدا ومعلما « مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ، وَإِيَّاكِ وَالعُنْفَ وَالفُحْشَ»[2] عرض ــ ﷺ ــ نصحه وإرشاده في ثوب بلاغي قائم على التضاد بين أسلوبي الإغراء والتحذير، وهما من أساليب التضاد التي تتلاءم وتتساوق مع مقام

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل، تح: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، ج ٤١/ص٣٥٦، حديث (٢٤٨٦٤)ــ ط : مؤسسة الرسالة، ط : الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١م .

(٢) صحيح البخاري ج ٨/ ص١٢، حديث (٦٠٣٠).

النصح والإرشاد، وتقود المتلقي إلى الاقتناع والرضا والتسليم، فكلا الأسلوبين يرسخ المعانى في النفس، ويقود الزوجة إلى الاقتناع والرضا والتسليم بالكلام الملقى عليها.

رابعًا ـ الإيجاز والإطناب:

غلب على الحوار النبوي في هذا المقام الإيجاز المتمثل في قصر الفقرات الدالة على مقصدها بأوجز لفظ، وأبلغ بيان، وهذا ينسجم مع إقناع الزوجة التي تتشوف إلى جواب شاف يقنعها بالقضية المحورية للحوار، بينما جاء الإطناب في بعض المواقف متمثلا في الإيضاح بعد الإبهام، أو ذكر الخاص بعد العام في السياقات التي تحتاج إلى فضل توكيد وبسط للمعنى المتحدث عنه، فمن الإيجاز قوله ـــ ﷺ ــ " أَوَلَيْسَ بِعَمِّكِ ؟! قَالَتْ: إِنَّمَا أَرْضَعَتْنِي الْمَرْأَةُ وَلَمْ يُرْضِعْنِي الرَّجُلُ، فَقَالَ : إِنَّهُ عَمُّكِ، فَلْيَلِجْ عَلَيْكِ " [1] اجتمع في هذا الحديث إيجاز قصر وإيجاز حذف ، فلم يزد ــ ﷺ ــ في إذنه عن قوله "إنه عمك، فليلج عليك" دون أن يطنب ــ ﷺ ــ ببيان يكشف لها كيف صار محرمًا لها ، وهذا من إيجاز القصر، وفي قوله " فليلج عليك " إيجاز حذف، حيث حذف أداة الشرط وفعله بعد الفاء الفصيحة، والتقدير فإذا كان عمك فليلج عليك.

ومن الإطناب قوله لعائشة ـــ رضي الله عنها ـــ عندما ردت على اليهود وأغلظت لهم القول، فقال ــ ﷺ ـــ لها " وَإِيَّاكِ وَالعُنْفَ وَالفُحْشَ " [2] والفحش المقصود هنا هو التعدي بالقول، هو ضرب من ضروب العنف، ذكر مرتين لما له من خصيصة بالموقف والسياق.

---

(١) سنن الدارمي لأبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، تح: حسين سليم أسد الداراني باب ما يحرم من الرضاعة، ج٣/ص١٤٤٣، حديث (٢٢٩٤) ـــ ط: دار المغني للنشر والتوزيع المملكة العربية السعودية، ط : الأولى، ١٤١٢ هـ ـــ - ٢٠٠٠ م. وقال المحقق: إسناده صحيح .

(٢) صحيح البخاري، ج ٨/ ص١٢، حديث (٦٠٣٠) .

خامسًا ـ التقديم والتأخير :

حرص الحوار النبوي على توظيف أسلوب التقديم والتأخير بمفهومه العام ؛ ليكون عونًا له في إقناع الزوجة بالقضية المتحاور فيها، فتارة يكون التقديم بين أجزاء الجملة الواحدة، وتارة يكون بين الجمل والأساليب بتقديم بعضها على بعض، مراعيًا في ذلك المحور الرئيس الذي يدور حوله الحوار والحالة النفسية للزوجة، ومن تلك الأحاديث، قوله ــ ﷺ ــ عن صفية ـــ رضي الله عنها ـــــ " وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهَا صَادِقَةٌ "(١) حيث قدم اسم الجلالة على الخبر الفعلي في التأكيد على صدق كلام صفية ــ رضي الله عنها ــ .

ومنه قوله لحفصة حينما اعتدت باللفظ على صفية ــ رضي الله عنهما ــ فقال لها " اتَّقِي اللَّهَ يَا حَفْصَةُ "(٢) قدم أسلوب الأمر على أسلوب النداء، إذ الأصل تقديم النداء؛ لأنه أسلوب تنبيه، لكنه قدم الأمر لما له من قوة زجر وتخويف مما وقعت فيه من الاعتداء على صفية بقولها "أنت ابنة يهودي" .

سادسًا ـ حسن الختام:

اهتم ــ ﷺ ــ بخاتمة حواره مع أزواجه ــ رضي الله عنهن ــ لأن الخاتمة " أخر ما يقرع السمع، ويرتسم في النفس، وربما حفظ لقرب العهد به، فإن كان مختارًا حسنا

(١) الجامع في الحديث لابن وهب لأبي محمد عبد الله بن وهب تح: د مصطفى حسن. ص ٦٥٥، ط : دار ابن الجوزي ــ الرياض ، ط : الأولى ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م .

(٢) سنن الترمذي لمحمد بن عيسى الترمذي، تح: أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة عوض، ج٥/ص ٧٠٩ ، جزء من حديث (٣٨٩٤) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه ــ ط: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى لحلبي - مصر، ط : الثانية ١٣٩٥ هـ- ١٩٧٥ م.

تلقاه السمع واستلذه " [1] فحسن الختام مدعاة لحفظ الكلام واستقراره في النفوس، وهذا يلتقي مع مقصد الإقناع وهو استقرار الكلام في النفوس مع الرضا به والاطمئنان إليه، وحسن الختام في حواره ــ ﷺ ــ يأتي ليقرر قاعدة كلية لا تتغير، فمن ذلك ما ورد في سياق إرشاده لعائشة ــ رضي الله عنها ــ عندما ردت على اليهود الذين دعوا عليه بالسام ، فقال لعائشة " فَيُسْتَجَابُ لِي فِيهِمْ، وَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِيَّ " [2]هذه النهاية الحسنة هي رسالة طمأنة وأمان لها ؛ لتوقن أن دعاء اليهود لن يصيبه بأذى، وهذا هو مكمن الخوف عندها؛ لذا جعله ــ ﷺ ــ ختام الكلام ليستقر في النفس استقرارًا لا يمحوه تقلب الأزمان.

(١) أنوار الربيع في أنواع البديع لابن معصوم . ص ٥١١.

(٢) صحيح البخاري، ج ٨/ ص١٢، حديث (٦٠٣٠) .

المبحث الأول

بلاغة الإقناع في سياق الغَيْرَة(١).

حضور الغيرة في ظل تعدد الزوجات أمر فطري، فقد جبلت المرأة على الغيرة على زوجها، ويزداد وهج الغيرة وتتأجج نارها في قلب المرأة على قدر تعلقها بزوجها، تُرى كيف يكون حال المرأة حينما يكون الزوج هو رسول الله ــ ﷺ ــ ! الذي ملك القلوب بحسن بيانه، ولطف معاملته؛ لذا كان من غير الطبيعي غياب الغيرة بين نساء النبي ــ رضي الله عنهن ــ لكنه ــ ﷺ ــ كان يواجه مواقفها بحكمته البالغة، وأسلوبه المقنع.

وقبل الشروع في التحليل البلاغي لأساليب الإقناع التي اعتمد عليها الحوار النبوي في مواجهة غيرة الزوجة وجب عليّ أن أنبه ــ بعد اطلاعي على أحاديث الغيرة وبالرجوع إلى كتب شروح الأحاديث والسيرة المطهرة لأمهات المؤمنين ــ على أن الغيرة بين نساء النبي ــ ﷺ ــ و ــ رضي الله عنهن جميعا ــ لم تصل إلى حد

(١) الغيرة : ضيق الصدر بين المرأة وزوجها في ما يقع بقلبه منها أو بقلبها منه في أمر الزوجية خاصة من ميله إلى غيرها أو ميلها إلى غيره. ويقال الغَيْرة، بِالْفَتْحِ، الْمَصْدَرُ مِنْ قَوْلِكَ غَارَ الرَّجُلُ عَلَى أَهْلِه. قَالَ ابْنُ سِيدَهْ: وَغَارَ الرَّجُلُ عَلَى امرأته، والمرأة عَلَى بَعْلِها تَغار غَيْرة وغَيْراً... امرأة غَيُور وَنِسْوَةٌ غُيُرٌ وامرأة غَيْرَى وَنِسْوَةٌ غَيارَى؛ وَفِي حَدِيثِ، أُم سَلَمَةَ ـــ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـــ : إِنَّ لِي بِنْتًا وأَنا غَيُور هُوَ فَعُول مِنَ الغَيْرة وَهِيَ الحَمِيّة والأَنَفَة. يُقَالُ: رَجُلٌ غَيور وامرأَة غَيُور بِلَا هَاءٍ لأَنّ فَعُولًا يشترك فِيهِ الذَّكَرُ والأُنثى. وَفِي رِوَايَةٍ: امرأَة غَيْرَى؛ هِيَ فَعْلَى مِنَ الغَيْرة. (ينظر لسان العرب مادة (غور ج ٥ / ص٤١ وما بعدها) وتفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم تأليف: محمد بن فتوح الأزدي تح : د. زبيدة محمد.ص٥٢٨ ط: مكتبة السنة ــ القاهرة ــ مصر ــ ط : الأولى، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

الحقد والضغائن، ولا إلى حد الحيف والجور، وإنما كانت غيرة تفرضها المسارعة في حب رسول الله ــ ﷺ ــ والاستئثار بحبه وكراهية أن تشاركها امرأة أخرى فيه .

والآن نذهب إلى التحليل البلاغي لأساليب الإقناع في هذا السياق ونحن على يقين بهذا الأصل الأصيل لأسباب الغيرة عندهن .

الحديث الأول

عَنْ عَائِشَةَ ــ رضي الله عنها ــ قَالَتْ: «كَانَ النَّبِيُّ ـ ﷺ ـ إِذَا ذَكَرَ خَدِيجَةَ أَثْنَى عَلَيْهَا، فَأَحْسَنَ الثَّنَاءَ، قَالَتْ: فَغِرْتُ يَوْمًا، فَقُلْتُ: مَا أَكْثَرَ مَا تَذْكُرُهَا حَمْرَاءَ الشِّدْقِ، قَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بِهَا خَيْرًا مِنْهَا، قَالَ: «مَا أَبْدَلَنِي اللَّهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ خَيْرًا مِنْهَا، قَدْ آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ بِي النَّاسُ، وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ، وَوَاسَتْنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ، وَرَزَقَنِي اللَّهُ وَلَدَهَا إِذْ حَرَمَنِي أَوْلَادَ النِّسَاءِ» (١)

من المعلوم أن أم المؤمنين عائشة لم تشاطر أم المؤمنين خديجة ــ رضي الله عنهما ــ بيت الزوجية، فقد ماتت خديجة وفارقت الحياة قبل أن تدخل عائشة حياة النبي ــ ﷺ ــ لكن تكرار ثنائه على خديجة بعد موتها حرك كوامن الغيرة في نفس عائشة، فافتتحت كلامها واصفة حال النبي ــ ﷺ ــ عند ذكر خديجة؛ لتبرر سبب غيرتها " إِذَا ذَكَرَ خَدِيجَةَ أَثْنَى عَلَيْهَا، فَأَحْسَنَ الثَّنَاءَ " فأداة الشرط " إذا " تشير إلى أن هذا

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ، ج٤١/ص ٣٥٦ ، حديث (٢٤٨٦٤) .
الشدق: جانب الفم. وحمراء الشدق كناية عن كبر سنها لتساقط أسنانها، وظهور حمرة لثتها. واستني: وآساه بماله: أناله منه وجعله فيه أسوة، ومنه المواساة: المشاركة والمساهمة في المعاش والرزق. لسان العرب (مادة شدق ج ١٠/ص ١٧٣، مادة أسا ج١٤/ص ٣٦) .

الثناء الحسن كان ديدن النبي ــ ﷺ ــ وعادته عند ذكرها، فهو لا يثني عليها فحسب، بل يحسن الثناء عليها، وهذا واضح حيث جعلت جواب الشرط جملتين إحداهما معطوفة على الأخرى، الثناء وحسن الثناء، وهذا يوحي بكثرة مدحه وتزكيته لأم المؤمنين خديجة ــ رضي الله عنها ــ .

فقالت عائشة ــ رضي الله عنها ــ " مَا أَكْثَرَ مَا تَذْكُرُهَا حَمْرَاءَ الشِّدْقِ" ومن هنا سرى الحوار الزوجي بين رسول الله ــ ﷺ ــ وزوجته عائشة التي ذكرت من حال خديجة أنها كانت (حمراء الشدق) وهي كناية عن كبر سنها، وذهاب جمالها، فعائشة لم تذكر شيئا ينقص من قدر خديجة ــ رضي الله عنهما ــ وإنما بينت أنها كانت عجوزا؛ لتزهد النبي ــ ﷺ ــ في الثناء عليها(١)، وهذه الكناية تحمل بين ثناياها تلميحًا خفيًّا تشير به عائشة إلى جمالها وشبابها، وأن خديجة لم يكن لها من هذا نصيب.

ولعل الدافع وراء هذه الكناية أن عائشة ــ رضي الله عنها ــ ظنت أن مقياس التفاضل بين النساء عند رسول الله ــ ﷺ ــ هو الجمال وصغر السن؛ لذا ترقّت من التلميح بالكناية إلى التصريح بفضلها وجمالها بقولها " قَدْ أَبدَلَكَ اللَّهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ

(١) معنى حمراء الشدقين بيضاء الشدقين والعرب تطلق على الأبيض الأحمر كراهة اسم البياض لكونه يشبه البرص ولهذا كان ــ ﷺ ــ يقول لعائشة يا حميراء، ثم استبعد القرطبي هذا لكون عائشة أوردت هذه المقالة مورد التنقيص فلو كان الأمر كما قيل لنصت على البياض لأنه يكون أبلغ في مرادها، قال والذي عندي أن المراد بذلك نسبتها إلى كبر السن لأن من دخل في سن الشيخوخة مع قوة في بدنه يغلب على لونه غالبا الحمرة المائلة إلى السمرة كذا قال والذي يتبادر أن المراد بالشدقين ما في باطن الفم، فكنت بذلك عن سقوط أسنانها حتى لا يبقى داخل فمها إلا اللحم الأحمر من اللثة وغيرها وبهذا جزم النووي وغيره . فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، تح: محب الدين الخطيب ج٧/ ص١٤٠ ط: دار المعرفة ــ بيروت.

بِهَا خَيْرًا مِنْهَا" صدرت كلامها بـ " قد" الداخلة على الفعل الماضي" أبدلك " تأكيدًا على أنها الأفضل شبابًا وجمالًا؛ لتلفت نظر النبي ــ ﷺ ــ إلى شبابها وجمالها مقارنة بحال خديجة ــ رضي الله عنهما ــ ففاجأها ــ ﷺ ــ برد مباغت لم تكن تتوقعه، فقال لها " مَا أَبْدَلَنِي اللَّهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ خَيْرًا مِنْهَا ".

ولما كان هذا الرد موضع استغراب وإنكار من عائشة ــ رضي الله عنها ــ أعقبه ــ ﷺ ــ بأدلة الإقناع التي تعيد لها استقرارها الفكري وتوازنها النفسي، ويكشف بها عن الفارق الجوهري بينها وبين خديجة ــ رضي الله عنهما ــ فذكر ــ ﷺ ــ لها المواقف والمناقب التي انفردت بها خديجة ــ رضي الله عنها ــ عن غيرها من النساء، فقال ــ ﷺ ــ " قَدْ آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ بِي النَّاسُ، وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ، وَوَاسَتْنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ، وَرَزَقَنِي اللَّهُ وَلَدَهَا إِذْ حَرَمَنِي أَوْلَادَ النِّسَاءِ " .

وأول ما يستوقف نفسك ويجذب انتباهك في مسالك الإقناع التي ساقها النبي ــ ﷺ ــ هي تلك النقلة النوعية لمسار الحوار، فهي تشبه أسلوب الحكيم؛ لأنه ــ ﷺ ــ تلقى عائشة ــ رضي الله عنها ــ بغير ما تترقب، فعائشة قد أسست أفضليتها على خديجة ــ رضي الله عنها ــ على مقومات الجمال وصغر السن، مقارنة بجمال وسن خديجة، ورسول الله ــ ﷺ ــ أقام أدلته التي تثبت فضل خديجة على بيان كاشف عن فضل خديجة ــ رضي الله عنها ــ في نفع الإسلام والمسلمين في مهد الدعوة لهذا الدين، فقد كانت ــ رضي الله عنها ــ ركنًا أساسيًا في بناء هذا الدين وإقامة بنيانه، وطوى ذكر السن والشكل والجمال في أدلته، ولم يشر إلى شيء من ذلك .

وتحويل النبي ــ ﷺ ــ لمسار الحوار بتلك الطريقة اللطيفة العجيبة يتبوأ ذروة أساليب الإقناع؛ فهو ــ ﷺ ــ لم يجعل عائشة طرفا في تلك المقارنة؛ لأن تلك الأحداث التي كان لخديجة قصب السبق فيها لم تدركها عائشة، فلو جاء ــ ﷺ ــ بأدلة جعلت

عائشة طرفًا في المقارنة مع خديجة لزاد وهج الغيرة وتأججت نارها أكثر، وهذا يبعد الحوار عن مسالك الإقناع، أما تحويل مسار الحديث بهذه الطريقة من شأنه أن يزيد من قناعة عائشة ــ رضي الله عنها ــ ويجعلها تسلم باستحقاق خديجة ــ رضي الله عنها ــ لتلك المكانة العليا من قلب النبي، فكان من دلائل اقتناع عائشة أنها لم تجادل النبي ــ ﷺ ــ في شيء منها، وهذا دليل حاسم على إقرارها بفضل خديجة .

ومن أجدى وسائل الإقناع في هذا الحوار بناء تلك الأدلة على الثنائية الضدية؛ لبيان الفارق الشاسع بين خديجة ــ رضي الله عنها ــ وبين الناس جميعا، فطابق ــ ﷺ ــ بين إيمانها وكفر الناس، وتصديقها وتكذيب الناس، ومواساتها له بالمال وحرمان الناس له، وإنجابها للولد وحرمان الأزواج من ذلك، فـ" الطباق مفردا ومكررا على سبيل المقابلة يؤكد المعاني ويقررها عند المخاطب؛ لأن الضد يظهر حسنه الضد، وبضدها تتبين الأشياء "[1] فرسم ــ ﷺ ــ بهذا الطباق صورة حية مختصرة لحياة خديجة أبرز فيها إيجابيتها ومسارعتها في نصرة الله ورسوله، مقارنة بسلبية الناس، وهي صورة تموج بالحيوية والحركة والصبر والمثابرة والتضحية في تلك المواقف التي لم ولن تتكرر مع أي امرأة غيرها، ولا شك أن هذا التضاد جذب قلب عائشة وقلوبنا معها، وأثار العقول إلى التفكر المفضي إلى التمييز بين حال خديجة وبقية الناس، ويترتب على التفكير الاقتناع والتسليم والإقرار بفضل خديجة ــ رضي الله عنهما ــ .

ومن الآليات البلاغية التي زادت من إقناع عائشة بفضل خديجة ــ رضي الله عنهما ــ تعميم المقارنة من خلال المجاز المرسل لعلاقة الكلية، فقارن بين خديجة وبين الناس جميعا، فلم يضع عائشة وحدها طرفا في أي فصل من فصول المقارنة،

(١) الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية د/كمال عزالدين ص٣٤٢ دار اقرأ، ط:الأولى١٤٠٤ه/ ١٩٨٤م.

فلفظة "الناس" التي تكررت ثلاث مرات جاءت على طريقة المجاز مرسل، حيث أطلق ــ ﷺ ــ كفر كل الناس وتكذيب كل الناس وحرمان كل الناس" قَدْ آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ بِي النَّاسُ، وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ، وَوَاسَتْنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ، ..." والمراد الجزء، ولا شك أن من الناس من آمن بالنبي ــ ﷺ ــ وصدقه وواسه بماله، لكنهم قليلون، وقد استطاع المجاز المرسل أن يصور مواقف خديجة تصويرًا يكشف عن بلوغها مبلغًا عظيمًا في التحمل والثبات أمام هذه الكثرة العاتية ممن حاربوا رسول الله ــ ﷺ ــ بشتى وسائل التعطيل والصد عن هذا الدين، أما لو جاء بالصورة على حقيقتها، فقال: إذ كفر بي جُلّ أو أكثر الناس...، لكانت الصورة باهتة لا تلائم سياق الإقناع الذي يتطلب مزيدا من تضخيم الصورة حتى تؤثر في النفوس إعجابًا بالمواقف وإشادة بالفضل، وما كان للأسلوب الحقيقي أن ينهض بما نهض به المجاز.

ومن آليات الإقناع التي وظفها النبي ــ ﷺ ــ في هذا الحوار ترتيبه لتلك الأدلة ترتيبًا بديعًا، يأخذ بعضها بأعناق بعض، يقول صاحب الكتاب عن ترتيب الكلام وتقديم الأهم على المهم " كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم ،وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعًا يهمانهم ويعنيانهم."[1] فبدأ ــ ﷺ ــ بالأهم ثم المهم، وقدم العام على الخاص، والدليل العقلي على الدليل العاطفي، فبدأ بقضية الإيمان والكفر، ثم أعقبها بقضية الصدق والكذب، ثم الدعم المالي "وواستني..." وهذه القضايا الثلاث من القضايا العامة التي تتعلق بالدين؛ لأن نصرة الدين في مهده هو أساس الفضل والمزية لخديجة ــ رضي الله عنها ــ لذا قدم ذكر الأدلة المتعلقة به، ثم ختم بقضية الإنجاب منها " وَرَزَقَنِي اللَّهُ وَلَدَهَا إِذْ حَرَمَنِي أَوْلَادَ النِّسَاءِ " وهي من القضايا الخاصة العاطفية، فقد جُبل البشر على حب الإنجاب

(١) الكتاب لسيبويه، تح:عبدالسلام هارون،ج١/ص٣٤ ـــ ط:مكتبةالخانجي،القاهرة ــ ط:الثالثة١٤٠٨هـ/١٩٨٨ م

والاستمتاع بالذرية.

وهذه الصياغة" وَرَزَقَنِي اللَّهُ وَلَدَهَا . . ." تنسجم مع مقام إقناع عائشة ــ رضي الله عنها ــ لما فيها من لطف الخطاب ولينه ؛ مراعاة لمشاعرها، فهي لم ترزق الولد، فلم يقل لها : وأنجبت لي الولد ، وإنما عبر عن الإنجاب بالرزق ، وأسند الفعل إلى الله للإشارة إلى أن أمر الإنجاب لم يكن بمقدور خديجة ولا بإرادتها ، ولا بمقدور وإرادة أي امرأة غيرها على وجه الأرض، وإنما هو رزق من الله يهبه لمن يشاء ويمنعه عمن يشاء بحكمته، كما قال جل شأنه ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاء يَهَبُ لِمَنْ يَشَاء إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاء الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاء عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ سورة الشورى آية ٥٠ ،٥١ . وجعل المقارنة عامة بين خديجة وجميع نسائه " إِذْ حَرَمَنِي أَوْلَادَ النِّسَاءِ " فلم يخص عائشة ــ ﷺ ــ وحدها بالمقارنة، فلم يقل لها :إذ حرمني منك الولد وهذه الصياغة الرقيقة التي لا تجرح المشاعر كانت بمثابة يد حانية وعناق دافئ لها؛ ليواسيها في حرمانها من الإنجاب ، واللطف في التعبير يصل بالمتلقي إلى ذروة الاقتناع والرضا والتسليم بالقضية موضع النقاش.

ولعلك ترى معي الأثر الفعال لأساليب الإقناع في هذا الحوار النبوي والذي يتجلى في قبول عائشة ــ رضي الله عنها ــ لتلك الأدلة، وعدم ردها لشيء منها، بل إنها لم تناقش رسول الله ــ ﷺ ــ مناقشة، بالرغم من دوافع الغيرة التي دفعتها إلى الرد في أول الحوار.

الحديث الثاني

عَنْ عَائِشَةَ – رضى الله عنها – أَنَّ نِسَاءَ رَسُولِ اللَّهِ ـــ ﷺ ــ كُنَّ حِزْبَيْنِ، فَحِزْبٌ فِيهِ عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ وَصَفِيَّةُ وَسَوْدَةُ، وَالْحِزْبُ الآخَرُ أُمُّ سَلَمَةَ وَسَائِرُ نِسَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ـ ﷺ ـ وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ قَدْ عَلِمُوا حُبَّ رَسُولِ اللَّهِ ـ ﷺ ـ عَائِشَةَ، فَإِذَا كَانَتْ عِنْدَ أَحَدِهِمْ هَدِيَّةٌ يُرِيدُ أَنْ يُهْدِيَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ـ ﷺ ـ أَخَّرَهَا، حَتَّى إِذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ـ ﷺ ـ فِي بَيْتِ عَائِشَةَ بَعَثَ صَاحِبُ الْهَدِيَّةِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ـ ﷺ ـ فِي بَيْتِ عَائِشَةَ فَكَلَّمَ حِزْبُ أُمِّ سَلَمَةَ، فَقُلْنَ لَهَا كَلِّمِى رَسُولَ اللَّهِ ـ ﷺ ـ يُكَلِّمُ النَّاسَ، فَيَقُولُ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُهْدِىَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ـ ﷺ ـ هَدِيَّةً فَلْيُهْدِهِ إِلَيْهِ حَيْثُ كَانَ مِنْ بُيُوتِ نِسَائِهِ، فَكَلَّمَتْهُ أُمُّ سَلَمَةَ بِمَا قُلْنَ، فَلَمْ يَقُلْ لَهَا شَيْئًا، فَسَأَلْنَهَا. فَقَالَتْ مَا قَالَ لِى شَيْئًا. فَقُلْنَ هَا فَكَلِّمِيهِ. قَالَتْ فَكَلَّمَتْهُ حِينَ دَارَ إِلَيْهَا أَيْضًا، فَلَمْ يَقُلْ لَهَا شَيْئًا فَسَأَلْنَهَا. فَقَالَتْ مَا قَالَ لِى شَيْئًا. فَقُلْنَ لَهَا كَلِّمِيهِ حَتَّى يُكَلِّمَكِ. فَدَارَ إِلَيْهَا فَكَلَّمَتْهُ. فَقَالَ لَهَا « لاَ تُؤْذِينِى فِي عَائِشَةَ، فَإِنَّ الْوَحْىَ لَمْ يَأْتِنِى، وَأَنَا فِي ثَوْبِ امْرَأَةٍ إِلاَّ عَائِشَةَ ». قَالَتْ فَقَالَتْ أَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مِنْ أَذَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، ثُمَّ إِنَّهُنَّ دَعَوْنَ فَاطِمَةَ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ ـ ﷺ ـ فَأَرْسَلْنَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ـ ﷺ ـ تَقُولُ إِنَّ نِسَاءَكَ يَنْشُدْنَكَ اللَّهَ الْعَدْلَ فِي بِنْتِ أَبِى بَكْرٍ ، فَكَلَّمَتْهُ. فَقَالَ: « يَا بُنَيَّةُ، أَلاَ تُحِبِّينَ مَا أُحِبُّ». قَالَتْ بَلَى. فَرَجَعَتْ إِلَيْهِنَّ، فَأَخْبَرَتْهُنَّ. . . . .[1]

ما تحرى المسلمون يوم عائشة ــ رضي الله عنها ــ ليقدموا فيه هداياهم إلى رسول الله ــ ﷺ ــ إلا لعلمهم حب رسول الله عائشة، وهذا الفعل من المسلمين حرك ثورة الغيرة في نفوس بقية أزواج النبي، فاجتمع حزب أم سلمة ــ رضي الله عن نساء النبي جميعا ــ وفوضنها لتكلم رسول الله ــ ﷺ ــ وتطلب منه أن يخبر الناس أنه

(١) صحيح البخاري، ج٣ /ص ١٥٦، حديث رقم (٢٥٨١) .

ينشدنك: أي يسألنك ويطلبن منك . ينظر لسان العرب مادة (نشد ج٣/ ص٤٢٢).

من كان مهديه هدية فليهده إليه في أي يوم، ولا يتحروا يوم عائشة ليقدموا هداياهم فيه إليه، ففعلت أم سلمة " فَكَلَّمَتْهُ أُمُّ سَلَمَةَ بِمَا قُلْنَ، فَلَمْ يَقُلْ لَهَا شَيْئًا، فَسَأَلْنَهَا . فَقَالَتْ مَا قَالَ لِى شَيْئًا . . . فَقُلْنَ لَهَا كَلِّمِيهِ حَتَّى يُكَلِّمَكِ "

ومن أُولى وسائل الإقناع النبوي في هذا الحوار صمته ــ ﷺ ــ فلم يرد على طلب أم سلمة ــ رضي الله عنها ــ في المرة الأولى ولا الثانية، وهذا الصمت يحمل شحنة شعورية وبلاغة إقناع تبرز شدة إنكاره لهذا السؤال، وعدم رضاه عنه، يقول الجاحظ: " واعلم أن الصمت في موضعه ربما كان أنفع من الإبلاغ بالمنطق في موضعه، وعند إصابة فرصته وذاك صمتك عند من يعلم أنّك لم تصمت عنه عيًّا ولا رهبة" (١).

ولعلك ترى معى اقتناع أم سلمة ــ رضي الله عنها ــ بتلك الرسالة التي بثها رسول الله ــ ﷺ ــ من خلال صمته، ودليل اقتناعها أنها لم تلح عليه في أن يرد عليها في كل مرة وجهت إليه سؤالها، وإنما كانت تكتفي بصمته، وتنقل هذا الصمت لبقية حزبها، لكن إلحاح صواحبها عليها في كل مرة هو الذي دفعها لتكرار السؤال"فَقُلْنَ لَهَا كَلِّمِيهِ حَتَّى يُكَلِّمَكِ" فلما أعادت السؤال بعد هذا الصمت المتكرر منه، خرج ــ ﷺ ــ عن صمته.فقال ــ ﷺ ــ لها " لاَ تُؤْذِينِى فِي عَائِشَةَ، فَإِنَّ الْوَحْىَ لَمْ يَأْتِنِى، وَأَنَا فِي ثَوْبِ امْرَأَةٍ إِلاَّ عَائِشَةَ " هذا الجواب النبوي الموجز كان له دور السحر في إقناع أم سلمة ــ رضي الله عنها ــ بالقضية المتحاور فيها، حيث أبان لها إن ما يحدث من اختصاص الناس يوم عائشة بالإهداء فيه، إنما هو هبة من الله لعائشة، ولا شأن له فيه، يقول الحافظ العراقي: " ولعل قوله ــ ﷺ ــ في جواب أم سلمة: " لا تؤذيني في عائشة...،

(١) رسائل الجاحظ، لأبي عثمان الجاحظ . تح : عبد السلام محمد هارون . ج ١/ص١١٢ــ ط: مكتبة الخانجي، القاهرة ــ ط : ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م .

إشارة إلى أن تقليب قلوب الناس للإهداء في نوبة عائشة أمر سماوي، لا حِيلة لي فيه ولا صنع، بدليل اختصاصها بنزول الوحي عليّ، وأنا في ثوبها، دون غيرها من أمهات المؤمنين، فلا يمكنني قَطْعُ ذلك، ولا آمرُ الناس بخلافه"[١]. وفي ربطه ــ ﷺ ــ بين هذين الاختصاصين، اختصاص الله عائشة بإنزال الوحي في حجرتها واختصاص الناس ليلتها بالإهداء فيها إشارة جلية منه ــ ﷺ ــ إلى تميز عائشة عن بقية نسائه، وأنها أرفع منزلة عند الله ــ عز وجل ــ منهن ، فالله ــ سبحانه وتعالى ــ هو الذي اختصها بذلك كرامة وإنعامًا منه عليها وحدها.

هذه الخيوط المتواصلة الرابطة بين هاتين المنقبتين التي اختصت بهما عائشة ــ رضي الله عنهاــ تجعل النفس تسلم بيقين وقناعة ورضًا بأن هذا فضل من الله لعائشة وحدها، ولا دخل لبشر فيها، وما كان من عند الله وجب أن يسلم العبد فيه الأمر لله، إذًا وجب على نساء النبي أن يسلمن بحكم الله واختياره في ذلك.

وقد صاغ ــ ﷺ ــ عناصر الإقناع صياغة محكمة تقنع النفوس، فبدأها بهذه الجملة التخويفية المصدرة بالنهي " لاَ تُؤْذِينِى فِي عَائِشَةَ " وهو نهي يصور كراهيته الشديدة لهذا الأمر المتحدث عنه؛ لأن الإنسان لا يتأذى إلا من شيء يكرهه، يقول ابن فارس عن الفعل أذى " الهمزة والذال والياء أصل واحد، وهو الشيء تتكرّهه، ولا تقرّ عليه."[٢] والذي يقتضيه ظاهر النظم أن يقول ــ ﷺ ــ لا تؤذي عائشة؛ لأن الأذى حقيقة واقع على عائشة إذا مُنع الناس من اختصاص ليلتها بالإهداء إليه، أما هو فالهدية ستصل إليه ــ ﷺ ــ في أي ليلة وعند أي امرأة، لكنه ــ ﷺ ــ جعل الأذى واقعًا عليه، وقوله " لا تؤذيني" أبلغ في تخويف حزب أم سلمة من قوله لا تؤذي عائشة؛

(١) طرح التثريب في شرح التقريب للعراقي ج ٧/ص ٥٢ــــ ط: دار إحياء التراث العربي، دون سنة طباعة.

(٢) مقاييس اللغة لابن فارس ج١/ ص٧٨ .

لأن إيذاء النبي ــ ﷺ ــ أشد جرما وأعظم حرمة من إيذاء عائشة ــ رضي الله عنها ــ ، وبهذه الصيغة يكون النهي أشد إرهابًا وأكثر إقناعًا للنفوس بكراهيته ــ ﷺ ــ لهذا الأمر، حتى ترتدع أم سلمة ومن معها عن الحديث في هذا الأمر، فضلًا عما في هذا البناء التركيبي "لا تؤذيني" من تصوير رائع لحبه وقوة ارتباطه ــ ﷺ ــ بعائشة ــ رضي الله عنها ــ حتى جعل ــ ﷺ ــ ما يؤذيها يؤذيه.

ثم شفع ــ ﷺ ــ نهيه بعلته، فقال " فَإِنَّ الْوَحْىَ لَمْ يَأْتِنِى، وَأَنَا فِي ثَوْبِ امْرَأَةٍ إِلاَّ عَائِشَةَ " فاء للتعليل التي تصدرت الجملة تربط النهي بعلته " لا تؤذيني فإن ..." ، ثم أكد جملة العلة بـ"إن، واسمية الجملة، والقصر" تقريرًا لتلك المنقبة في نفوس حزب أم سلمة ــ رضي الله عن نساء النبي جميعا ــ وتنويهًا على تفرد عائشة بها دون غيرها من بقية نسائه، وهذا التفرد مفاد من أسلوب القصر، حيث قصر صفة نزول الوحي عليه وهو مشتمل في لحافها هي دون غيرها من نسائه، وقد تخير ــ ﷺ ــ طريق النفي والاستثناء الذي عده البلاغيون من أقوى طرق القصر؛ لأن طريق النفي والإثبات لا يأتي إلا في أمر ينكره المخاطب أو ما ينزل منزلته، يقول الإمام عبدالقاهر: "وأما الخبر بالنفي والإثبات نحو: "ما هذا إلا كذا"، و"إن هو إلا كذا"، فيكون لأمر ينكره المخاطب ويشك فيه...، وجملة الأمر أنك متى رأيت شيئا هو من المعلوم الذي لا يشك فيه قد جاء بالنفي، فذلك لتقدير معنى صار به في حكم المشكوك فيه" [1] فقد أنزل ــ ﷺ ــ حال أم سلمة ــ رضي الله عنها ــ حال المنكر لهذا الخبر، فأكد لها الجملة بطريق القصر؛ ليزداد هذا المعنى قرارًا في نفسها، والقصر بالنفي والاستثناء يتساوق مع انفعال النبي ــ ﷺ ــ من تصرف أم سلمة ــ رضي الله عنها ــ وبقية حزبها ؛ لأن النفي والاستثناء تلقاه حين ترتفع نبرة الانفعال، وتتوهج العاطفة وتهتز القلوب انفعالا تجاه القضية المتحدث

(١) ينظر دلائل الإعجاز للإمام عبدالقاهر الجرجاني، تح: محمود شاكر ص ٣٣٢، وما بعدها . ط : مطبعة المدني بالقاهرة ــ دار المدني بجدة، ط: الثالثة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

عنها، وقد آتى هذا الأسلوب أكله، فهرعت أم سلمة ــ رضي الله عنها ـــ معتذرة إلى رسول الله ــ ﷺ ــ " أَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مِنْ أَذَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ " وهو اعتذار عن رضا وإذعان واقتناع، يحمل إقرارًا ضمنيًّا بترك الحديث ثانية في هذا الموضوع.

انتهت القضية عند أم سلمة ــ رضي الله عنها ــ مقتنعة راضية بما ذكره النبي ــ ﷺ ــ لكن بقية حزبها لم تنته القضية عندهن، بل أردن التأثير أكثر على النبي ــ ﷺ ــ في هذه القضية، فتخيرن له فاطمة ــ رضي الله عنها ــ وهي أحب بناته إليه، فعرضت الأمر ثانية على أبيها ــ ﷺ ــ ناقلة مقولة بقية نسائه ــ رضي الله عنهن ــ " إِنَّ نِسَاءَكَ يَنْشُدْنَكَ اللَّهَ الْعَدْلَ فِي بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ " [1] فرد عليها ــ ﷺ ـــ « يَا بُنَيَّةُ، أَلَا تُحِبِّينَ مَا أُحِبُّ ».

رغم أن الشكاية التي نقلتها فاطمة هي نفسها التي نقلتها أم سلمة ــ رضي الله عنهما ــ إلا أنك تلحظ الفارق بين رده ــ ﷺ ــ على أم سلمة ورده على فاطمة ــ رضي الله عنهما ــ فقد عمد في رده على أم سلمة إلى التخويف وإقناع العقول، بينما

(١) وطلب أزواج النبي ــ ﷺ ــ منه العدل بينهن وبين عائشة ــ رضي الله عنها ــ ليس على معنى أنه جار عليهن، فمنعهن حقًّا لهنَّ، لأنَّه ــ ﷺ ــ منزه عن ذلك، لكن صدر ذلك منهنَّ بمقتضى الغيرة والحرص على أن يكون لهنَّ مثل ما كان لعائشة ، من إهداء الناس له إذا كان في بيوتهنَّ، فكأنهنَّ أردن أن يأمر من أراد أن يهدي له شيئًا ألا يتحرى يوم عائشة بهداياهم، ويحتمل أن يقال: إنهنَّ طلبن منه أن يسوي بينهن في الحب، ولذلك قال ــ ﷺ ــ لفاطمة رضي الله عنها: ألست تحبين من أحب؟ قالت: بلى. قال: فأحبي هذه، وكلا الأمرين لا يجب العدل فيه بين النساء. أما الهدية فلا تطلب من المهدي، فلا يتعين لها وقت، وأما الحب: فغير داخل تحت قدرة الإنسان ولا كسبه.ينظر(المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم للقرطبي، تح: محيي الدين ديب ميستو وآخرون ج٦/ص٣٢٤، ٣٢٥ ، الناشر: دار ابن كثير، دمشق – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ/١٩٩٦ م

عمد في رده على فاطمة ــ رضي الله عنها ــ إلى توظيف وسائل الإقناع الوجدانية بإثارة المشاعر وإقناع العواطف والأحاسيس، حيث استهل كلامه ــ ﷺ ــ بنداء حان رقيق "يَا بُنَيَّةُ" ليجذب انتباهها، ويستميل قلبها، وصغر ابنة "بنية" ملاطفة وتوددا لها، ثم أعقب النداء بعرض لطيف مشوق "أَلَا تُحِبِّينَ مَا أُحِبُّ" جاء بفعل الحب في جانب فاطمة ــ رضي الله عنها ــ وعلقه بما يحب هو؛ لما في فعل الحب من تصوير لحرارة العاطفة، ودفء المشاعر المتواصلة بينه ــ ﷺ ــ وبين أحب بناته ــ رضي الله عنها ــ .

وعدل ــ ﷺ ــ عن الطلب بالأمر الصريح " أحبي ما أحب" إذ لو جاء به لم يسع فاطمةــ رضي الله عنهاــ إلا تنفيذ الأمر، إذ كيف لا تمتثل! وهي أحب بناته إليه، وأكثرهن قربًا منه، لكنه ــ ﷺ ــ عدل إلى أسلوب العرض "ألا" لما في العرض من تلطف وتودد يزيد الكلام حسنًا وبهاء، ومن ثم تسارع النفس إلى تنفيذ المطلوب باقتناع ورضا وقبول؛ لذا كان أسلوب العرض أبلغ في استمالتها وإقناعها بلطف وتودد ، وهو يكشف عن مدى حبه لابنته فاطمة ــ رضي الله عنها ــ .

وقد آتى أسلوب الإقناع الوجداني ثماره " قالت : بلى ، فَرَجَعَتْ إِلَيْهِنَّ، فَأَخْبَرَتْهُنَّ فَقُلْنَ: ارْجِعِي إليه، فأَبَت أَنْ تَرْجِعَ " فرفضها الرجوع للحديث في هذا الأمر ثانية دليل دامغ وحجة ظاهرة على اقتناعها بكلام أبيها ــ صلى الله وسلم على أبيها ــ ورضي الله عنها وأرضاها.

الحديث الثالث

قَالَتْ عَائِشَةُ ــ رضي الله عنها ــ : أَلَا أُحَدِّثُكُمْ عَنِّي وَعَنْ رَسُولِ اللهِ ـ ﷺ ـ. قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: قَالَتْ: لَمَّا كَانَتْ لَيْلَتِي الَّتِي كَانَ النَّبِيُّ ـ ﷺ ـ فِيهَا عِنْدِي، انْقَلَبَ فَوَضَعَ رِدَاءَهُ، وَخَلَعَ نَعْلَيْهِ، فَوَضَعَهُمَا عِنْدَ رِجْلَيْهِ، وَبَسَطَ طَرَفَ إِزَارِهِ عَلَى فِرَاشِهِ، فَاضْطَجَعَ، فَلَمْ يَلْبَثْ إِلَّا رَيْثَمَا ظَنَّ أَنْ قَدْ رَقَدْتُ، فَأَخَذَ رِدَاءَهُ رُوَيْدًا، وَانْتَعَلَ رُوَيْدًا، وَفَتَحَ الْبَابَ فَخَرَجَ، ثُمَّ أَجَافَهُ رُوَيْدًا، فَجَعَلْتُ دِرْعِي فِي رَأْسِي، وَاخْتَمَرْتُ، وَتَقَنَّعْتُ إِزَارِي، ثُمَّ انْطَلَقْتُ عَلَى إِثْرِهِ، حَتَّى جَاءَ الْبَقِيعَ فَقَامَ، فَأَطَالَ الْقِيَامَ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ انْحَرَفَ فَانْحَرَفْتُ، فَأَسْرَعَ فَأَسْرَعْتُ، فَهَرْوَلَ فَهَرْوَلْتُ، فَأَحْضَرَ فَأَحْضَرْتُ، فَسَبَقْتُهُ فَدَخَلْتُ، فَلَيْسَ إِلَّا أَنِ اضْطَجَعْتُ فَدَخَلَ، فَقَالَ: «مَا لَكِ؟ يَا عَائِشُ، حَشْيَا رَابِيَةً» قَالَتْ: قُلْتُ: لَا شَيْءَ، قَالَ: «لَتُخْبِرِينِي أَوْ لَيُخْبِرَنِّي اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ» قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، فَأَخْبَرْتُهُ، قَالَ: «فَأَنْتِ السَّوَادُ الَّذِي رَأَيْتُ أَمَامِي؟» قُلْتُ: نَعَمْ، فَلَهَدَنِي فِي صَدْرِي لَهْدَةً أَوْجَعَتْنِي، ثُمَّ قَالَ: «أَظَنَنْتِ أَنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْكِ وَرَسُولُهُ؟» قَالَتْ: مَهْمَا يَكْتُمِ النَّاسُ يَعْلَمْهُ اللهُ، نَعَمْ، قَالَ: " فَإِنَّ جِبْرِيلَ أَتَانِي حِينَ رَأَيْتِ، فَنَادَانِي، فَأَخْفَاهُ مِنْكِ، فَأَجَبْتُهُ، فَأَخْفَيْتُهُ مِنْكِ، وَلَمْ يَكُنْ يَدْخُلُ عَلَيْكِ وَقَدْ وَضَعْتِ ثِيَابَكِ، وَظَنَنْتُ أَنْ قَدْ رَقَدْتِ ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَكِ ، وَخَشِيتُ أَنْ تَسْتَوْحِشِي، فَقَالَ: إِنَّ رَبَّكَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَ أَهْلَ الْبَقِيعِ فَتَسْتَغْفِرَ لَهُمْ...". (١)

(١) صحيح مسلم ، ج ٢/ص ٦٦٩، حديث (٩٧٤) ، باب ما يقال عند دخول المقابر.
تقنعت درعي : أي لبست درعي، ودرع المرأة: قميصها . حشيا رابية: أي ما لك قد وقع عليك الحشى، وهو الربو والبهر والنهيج الذي يعرض للمسرع في مشيته والمحتد في كلامه من ارتفاع النفس وتواتره، ويقال رجل حش وحشيان من الربو، والأنثى حشية وحشيا، على فعلى . لهدني: اللهد : الضرب في الثديين وأصول الكتفين. الحيف: الميل في الحكم، والجور والظلم . ينظر لسان العرب (مادة قنع ج ٨/ص ٣٠٠، ومادة درع ج ٨/ص٨٢، ومادة حشا ج ١٤/ص ١٧٩، مادة لهد ج ٣/ص ٣٩٣، مادة حيف ج٩/ص٦٠)

في ليلة من ليالي أم المؤمنين عائشة ــ رضي الله عنها ــ دخل النبي ــ ﷺ ــ حجرتها وتهيأ للنوم، فرقد ثم قام فخرج رويدًا رويدًا، فنشبت الغيرة في قلبها، وحركتها لتسير وراء النبي ــ ﷺ ــ خشية أن يكون قد تركها وذهب لإحدى نسائه، ثم عاد ــ ﷺ ــ فعادت مسرعة أمامه، فدخل عليها، فوجدها نائمة تنهج، فسألها ــ ﷺ ــ « مَا لَكِ؟ يَا عَائِشُ، حَشْيَا رَابِيَةً » استفهام حقيقي يحمل في طياته معاني الأنس والمودة، بدلالة نداء الترخيم "عائش" ففي الترخيم تودد وتدلل لا يخفى على أحد، فردت " لَا شَيْءَ " أي ليس بي شيء من هذا.

هنا فطن ــ ﷺ ــ أنها تخفي عليه شيئا ما، فأراد أن يقررها لتخبره بما تخفيه عنه، فوجه إليها تلك الجملة المؤثرة التي تحمل النفس على الاعتراف قسرا « لَتُخْبِرِينِي أَوْ لَيُخْبِرَنِّي اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ » فهو سيعلم ما تخفيه حتما منها أو من الله بالوحي، إذًا لا مخرج من ذلك إلا أن تبوح عائشة ــ رضي الله عنها ــ بما تخفيه، وتأمل دقة العبارة النبوية التي صُدِّرت باللام الموطئة للقسم المحذوف ونون التوكيد، أي والله لتخبريني... ، والتوكيد يكشف إلحاحه ــ ﷺ ــ في معرفة ما تخفيه زوجته عنه ، و"أو" هنا للتخيير بين أن تعترف أو ليخبره ربه بما تخفيه، وقد وظف ــ ﷺ ــ أداة التخيير كأسلوب من أساليب الضغط لتفصح عما تخفيه في نفسها، فمآل ما تخفيه سيعلمه يقينًا، فلما أفصحت عما حدث منها، وعلم ــ ﷺ ــ أن الدافع وراء ما فعلت هو الغيرة المفرطة، غضب ــ ﷺ ــ مما فعلت؛ لأن فعلها مبني على سوء ظن منها أن النبي ــ ﷺ ــ قد تركها في ليلتها؛ ليبيت عند إحدى نسائه، فدفعها ــ ﷺ ــ بيده، ثم ارتفعت نبرة الحوار الدالة على شدة غضبه ــ ﷺ ــ منها.

هذا الموقف من عائشة ــ رضي الله عنها ــ يحتاج إلى رد مقنع يقوض به أركان الشك والارتياب التي سيطرت على فكر زوجته ، فافتتح ــ ﷺ ــ رده بالاستفهام

الإنكاري وهو عنصر من أهم عناصر الإقناع التي وظفت في هذا الحوار، حين أنكر عليها فعلها، قائلًا لها : « أَظَنَنْتِ أَنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْكِ وَرَسُولُهُ؟ » صدر الجملة بهمزة الاستفهام الإنكارى المشربة معانى التعجب والتأنيب على ما حدث منها، أي ما كان ينبغي لك أن تظنى أن رسول الله يظلمك، والاستفهام الإنكاري أقوى دلالة وأقنع حجة من الإنكار الخبري، كأن يقول لها" ما كنت لأحيف عليك..."؛ لما فى الإنكار بطريق الاستفهام من إثارة للعقل، وتحريك للوجدان ، ومواجهة بالخطأ الذي وقعت فيه.

وتزداد مواجهة الاستفهام تأنيبًا وإيلامًا في نفس عائشة بجعل اسم الجلالة "الله" وصفة الرسالة "ورسوله" محل الإنكار، فلم يقل أظننت أن أحيف أنا، وإنما عبر عن نفسه بصفة الرسالة، فكيف يحيف العدل ــ سبحانه ــ ورسوله العادل عليك! وقد فصل بين المتعاطفين " الله ورسوله" بالجار والمجرور "عليك" الذي هو في موضع المفعول؛ لبيان الفارق الرتبي بين المتعاطفين الله ورسوله؛ زيادة في التقريع والتوبيخ ليصير الإنكار أكثر إيلاما في نفسها؛ فـ" الرسول لا يمكن أن يفعل بدون أذن من الله ــ تعالى ــ ولو كان منه جور لكان بإذن الله ــ تعالى ــ له فيه، وهذا غير ممكن "[1].

لا شك أن هذا الإنكار الشديد يجعل عائشة ـــ رضي الله عنها ـــ تراجع نفسها، فتستنكر فعلها، وتعترف بخطئها، واستنكار الفعل والاعتراف بالخطأ من أصدق أدلة إقناع المتلقي بكلام من يحاوره.

ومن وسائل الإقناع التي تسترعي السمع، وتستولي على القلب هو انتقال أسلوب الحوار النبوي من اللهد باليد والإنكار الشديد بالاستفهام إلى الرقة ولين الجانب ولطف الدلالة في الفقرة التالية لهذا الإنكار؛ ليخفف عن زوجته ــ رضي الله عنها ــ حدة المعاناة النفسية التي سيطرت عليها بسبب شدة غضبه ــ ﷺ ــ وقوة إنكاره عليها،

(١) حاشية السندي على سنن النسائي، لنور الدين السندي ج ٧ /ص ٧٥ ، ط: مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب ــ ط: الثانية، ١٤٠٦ ه / ١٩٨٦م .

ليهدئ من روعها ويؤنس قلبها، ويزيل هواجس نفسها بالكشف عن سر خروجه ليلًا بتلك الطريقة، فقال ــ ﷺ ــ: (فَإِنَّ جِبْرِيلَ أَتَانِي حِينَ رَأَيْتِ، فَنَادَانِي، فَأَخْفَاهُ مِنْكِ، فَأَجَبْتُهُ، فَأَخْفَيْتُهُ مِنْكِ، وَلَمْ يَكُنْ يَدْخُلُ عَلَيْكِ وَقَدْ وَضَعْتِ ثِيَابَكِ، وَظَنَنْتُ أَنْ قَدْ رَقَدْتِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَكِ، وَخَشِيتُ أَنْ تَسْتَوْحِشِي، فَقَالَ: إِنَّ رَبَّكَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَ أَهْلَ الْبَقِيعِ فَتَسْتَغْفِرَ لَهُمْ) فقد استهل ــ ﷺ ــ كلامه بذكر جبريل ــ عليه السلام ــ وهو ملك لا تراه عائشة ـــ رضي الله عنها ــ ولا تسمع صوته، وهذا أدعى لإقناعها بخفاء علة خروجه ليلا، ولما كان جبريل ينزل على النبي ــ ﷺ ــ بالوحي في حجرة عائشة[1] كشف ــ ﷺ ــ لها سبب امتناعه عن الدخول إلى حجرتها في هذه الليلة ، فقال: (وَلَمْ يَكُنْ يَدْخُلُ عَلَيْكِ وَقَدْ وَضَعْتِ ثِيَابَكِ) وهو تعليل قوي، وحجة سديدة، وتوجيه بليغ مقنع لعدم دخوله عليها، يزيل به الهواجس والوساوس التي دفعتها إلى الوقوع في هذا الخطأ.

ومن آليات الإقناع البلاغية تكراره ــ ﷺ ــ لأدوات التوكيد " فإنَّ ، وقد، أن قد " لتأكيد الجملة، وترسيخ ما تحويه من أدلة رشيدة ومشاعر فياضة بالحب والتقدير والاحترام لزوجته.

ثم ختم حواره بتلك الجملة الزاخرة بمشاعر الحب " فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَكِ، وَخَشِيتُ أَنْ تَسْتَوْحِشِي " فتأمل تزاحم ألفاظ الرفق في هذه الفقرة؛ تقديرًا لمشاعرها في النوم خشية من أن تستيقظ فتستوحش من جلوسها منفردة في ظلمة الليل، ولعل تلك الألفاظ وهذه الأفعال التي فعلها النبي ــ ﷺ ــ من أجلها وقعت على قلب عائشة موقع الأسى، فهو

(١) ودليل ذلك قوله ــ ﷺ ــ "لَا تُؤْذِينِي فِي عَائِشَةَ فَإِنَّ الوَحْيَ لَمْ يَأْتِنِي وَأَنَا فِي ثَوْبِ امْرَأَةٍ، إِلَّا عَائِشَةَ " ينظر ص: ٦٧٦ من هذا البحث.

ــ ﷺ ــ فعل ذلك مراعاة لمشاعرها، وهي ظنت به هذا الظن السيء؛ فمثل هذا يزرع الندم في نفسها، ويدفعها للاقتناع بخطئها في حقه.

المبحث الثاني

بلاغة الإقناع في سياق تطييب خاطر[1] الزوجة المعتدى على حقها.

لم يكن الدافع وراء تحامل بعضهن على بعض هو الكراهية المقيتة، وإنما حبهن المفرط لرسول الله ــ ﷺ ــ ورغبة كل واحدة منهن في الانفراد به والاختصاص بحبه، وكراهية أن تشاركها غيرها في هذا الحب، هذا هو الدافع الرئيس وراء هذا التحامل، وهذه المواقف وصلت بهن إلى تعكير صفو الحياة بينهن تعكيرًا مؤقتًا.

وقد كان ــ ﷺ ــ يسارع إلى تطييب خاطر الزوجة المعتدى على حقها فيؤانسها؛ ليزال ما علق في نفسها من أذى عكر عليها صفو حياتها، وهذا من حسن عشرته ــ ﷺ ــ وكريم معاملته مع أزواجه، وهو برهان على محبته لهن، وعدله بينهن، وبه تزداد الألفة، وتعود الحياة إلى سابق عهدها قبل الوقوع في هذا الاعتداء.

---

(١) يقول أبو البقاء الكفوي في كتابه الكليات : الخاطر: اسم لما يتحرك في القلب من رأي أو معنى ثم سمي محله باسم ذلك. وهو في الصفات الغالبة، يقال: خطر ببالي، وعلى بالي أمر. وأصل تركيبه يدل على الاضطراب والحركة.
ويقول د/ أحمد مختار جبَر خاطرَه/ جبَر بخاطرَه: أجاب طلبَه، عزّاه وواساه في مصيبةٍ حلَّت به، أزال انكساره وأرضاه. ينظر (الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية تح: عدنان درويش – محمد المصري، ص٤٣٣ ط: مؤسسة الرسالة – بيروت ــ د س. وينظر معجم اللغة العربية المعاصرة تأليف: د أحمد مختار عبد الحميد عمر بمساعدة فريق عمل ج ١/ ص٦٦١ ــ ط: عالم الكتب ــ ط: الأولى، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م)

وقد عمد ــ ﷺ ــ في حواره مع الزوجة المعتدى على حقها على أساليب الإقناع والترضية الممزوجة بحسن البيان وتطييب الخاطر، فيمسح بذلك جرح الاعتداء الذي عكر على الزوجة صفو حياتها، ومن تلك الأحاديث ما يلي :

الحديث الأول

عَنْ أَنَسٍ ــ رضي الله عنه ــ قَالَ: « بَلَغَ صَفِيَّةَ أَنَّ حَفْصَةَ قَالَتْ: بِنْتُ يَهُودِيٍّ، فَبَكَتْ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وَهِيَ تَبْكِي، فَقَالَ: « مَا يُبْكِيكِ » ؟ فَقَالَتْ : قَالَتْ لِي حَفْصَةُ: إِنِّي بِنْتُ يَهُودِيٍّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ : « إِنَّكِ لَابْنَةُ نَبِيٍّ، وَإِنَّ عَمَّكِ لَنَبِيٌّ، وَإِنَّكِ لَتَحْتَ نَبِيٍّ، فَفِيمَ تَفْخَرُ عَلَيْكِ؟ » ثُمَّ قَالَ: « اتَّقِي اللَّهَ يَا حَفْصَةُ » (١)

خرج هذا الحوار من رحم موقف متأزّم يحتاج إلى أسلوب حكيم، وحجة مقنعة تجبر خاطر صفية ــ رضي الله عنها ــ وقد استطاع ــ ﷺ ــ أن يسوس هذا الموقف بأسلوب هادئ، وحكمة بالغة، ووقار فياض، وحديث عذب، ولسان رطب .

عندما رأي رسول الله ــ ﷺ ــ زوجته أم المؤمنين صفية ــ رضي الله عنها ــ تبكي استشعر ــ ﷺ ــ أن هناك أمرًا ما ؛ فسألها «مَا يُبْكِيكِ»؟ وهو استفهام حقيقي فيه ما فيه من المؤانسة والمواساة، وبه فتح باب الحوار لتفصح عن سر بكائها، فأجابت ــ رضي الله عنها ــ قائلة: " قَالَتْ لِي حَفْصَةُ: إِنِّي بِنْتُ يَهُودِيٍّ " والتوكيد الذي تجده في صدر شكواها يعكس أثر تلك المقولة على حالتها النفسية، ومشاعرها المكلومة، ومدى معاناتها منها؛ لذا سارع ــ ﷺ ــ إلى تطييب خاطرها بأسلوب بلغ ذروة الإقناع العقلي والإمتاع النفسي، فكشف ــ ﷺ ــ لها عن شرف نسبها، ورفعة شأنها، قائلا لها: " إِنَّكِ لَابْنَةُ نَبِيٍّ، وَإِنَّ عَمَّكِ لَنَبِيٌّ، وَإِنَّكِ لَتَحْتَ نَبِيٍّ، فَفِيمَ تَفْخَرُ عَلَيْكِ؟ " حينما تتأمل ذلكم الأسلوب النبوي

(١) سنن الترمذي لمحمد بن عيسى الترمذي، تح: أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة عوض، ج٥/ص ٧٠٩ ، حديث (٣٨٩٤) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه ــ ط: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، ط : الثانية ١٣٩٥ هـ- ١٩٧٥ م.

المقنع الذي رد به مقولة حفصة، وطيب به خاطر صفية ــ رضي الله عنهما ــ لا تملك إلا أن تقف مبهورًا أمام عمق أدلة الإقناع، وطرفتها، وروعة تراكيبها، ووجازة لفظها.

قال ــ ﷺ ــ لصفية " إِنَّكِ لَابْنَةُ نَبِيٍّ، وَإِنَّ عَمَّكِ لَنَبِيٌّ، وَإِنَّكِ لَتَحْتَ نَبِيٍّ، فَفِيمَ تَفْخَرُ عَلَيْكِ؟ " وأول ما يروقك ذكره من عناصر الإقناع اعتماد الحوار النبوي على أسلوب الحكيم في الجواب ، حيث أجاب على صفية بغير ما يترقب بحمل كلامها على غير مراده ، فالدليل الذي اتخذته حفصة للطعن في اكتمال فضل انتساب صفية إلى الإسلام، وهو أنها ابنة رجل يهودي.

حوله ــ ﷺ ــ إلى مفخرة ومنقبة في حق صفية ــ رضي الله عنها ــ وذلك بترك انتسابها إلى أبيها القريب حيي بن أخطب؛ لأنه يهودي ومات على يهوديته[1] وهو سبب النقيصة، ونسبها إلى أجدادها من ذوي الدين والرفعة عند الله، ولطرافة هذا الأسلوب وعمق دلالته يكاد المستمع إليه من أول وهلة دون تأمل أن ينكره، فإذا ما تروى وتأمل وفهم دلالته ازداد به إعجابًا واقتناعًا، واستقر الكلام في نفسه استقرارًا لا يبرح.

---

(١) هي: صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ بْنِ سَعْيَةَ... من بني إسرائيل من سبط هارون بن عمران ــ ﷺ ــ ... قَالَ: [لَمَّا دَخَلَتْ صَفِيَّةُ عَلَى النَّبِيِّ ــ ﷺ ــ قَالَ لَهَا: لَمْ يَزَلْ أَبُوكِ مِنْ أَشَدِّ يَهُودَ لِي عَدَاوَةً حَتَّى قَتَلَهُ اللَّهُ. فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: «ولا تزر وازرة وزر أخرى» . فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ: اخْتَارِي. فَإِنِ اخْتَرْتِ الإِسْلامَ أَمْسَكْتُكِ لِنَفْسِي وَإِنِ اخْتَرْتِ الْيَهُودِيَّةَ فَعَسَى أَنْ أُعْتِقَكِ فَتَلْحَقِي بِقَوْمِكِ] . فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ لَقَدْ هَوَيْتُ الإِسْلامَ وَصَدَّقْتُ بِكَ قَبْلَ أَنْ تَدْعُوَنِي. (ينظر الطبقات الكبرى لابن سعد، تح: محمد عبدالقادر عطا، ج٨/ ص٩٥ وما بعدها ــ ط: دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط : الأولى ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م).

فقد جعل ــ ﷺ ــ صفية ابنة نبي "وَإِنَّكِ لَابْنَةُ نَبِيٍّ" وهو نبي الله هارون ــ عليه السلام ـــ وهذه رتبة رفيعة المصعد عالية المرتقى، ثم جعل عمها نبيا " وَإِنَّ عَمَّكِ لَنَبِيٌّ " وهو نبي الله موسى ــ عليه السلام ــ وهذه منقبة أخرى تنضم إلى أختها لتصل بها إلى هامة الشرف وذرة الفضل، يقول صاحب المرقاة عن هذا النسب الشريف البعيد " إنك لابنة نبي أي نظرا إلى جدها الأكبر وهو إسحاق أو هارون " وإن عمك لنبي" وهو إسماعيل أو موسى، والأول فيهما ذكره المظهر. وقال الطيبي: لعل الأخير هوالأظهر"(١). أي هارون وموسى ــ عليهما السلام ــ .

وتسمية الجد بالأب جاء على سنن العربية، وطرق بيانها (٢)؛ لذا لم تستفهم ــ رضي الله عنها ــ عن المقصود بالأب والعم عندما قال لها ابنة نبي وعمك نبي.

ثم ختم ــ ﷺ ــ بيانه الكاشف عن رفعة مكانة صفية بالربط بين ماضيها الضارب في مجد الإسلام ورفعة النبوة إلى حاضرها البالغ ذروة شرف الإسلام وغرة النبوة، فقال لها: " وإنّك لَتحتَ نَبيّ " كنى عن رابطة الزواج بينهما بالتحتية " تحت" وهي تحتية عصمة ورعاية وقوامة، وهو تعبير يتناغى مع مقام تطيب الخاطر بالدفاع عنها ؛ فمن أولى واجبات القوامة صيانة المرأة من كل ما يؤذيها، ومقولة حفصة لا شك أنها تؤذيها، ثم أضافها إليه إضافة تشريف وتكريم وتعظيم "تحت نبي" وعبر ــ ﷺ ـــ عن

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، للملا الهروي القاري ج٩/ص ٣٩٩٤ ــ ط: دار الفكر، بيروت ــ لبنان ــ ط : الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

(٢) يقول د/ محمد داود عن إطلاق لفظ الأب في القرآن على الجد " وهذا الاستعمال القرآني مرتبط باتساع الأصل اللغوي لكلمة (أب) وشمولها لكل من كان سببا في وجود الشيء، أو رعايته أو ظهوره،(ينظر معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم . د/ محمد داود.ص ٢٥ ــ ط: دار غريب للطباعة والنشر ــ ط: ٢٠٠٨ .

نفسه الشريفة بصفة النبوة، عادلا بها عن ضمير المتكلم " وإنك لتحتي"، وهذا العدول يتناسب مع مساق الحديث، واتساق النظم ومسلك الإقناع الذي يرمي إلى إبراز سمو قدرها، وعلو شرفها ورفعة مكانتها، فهي زوجة النبي ــ ﷺ ــ أما ضمير المتكلم فليس له من التأثير النفسي مثل ما لهذا الوصف الشريف من الأثر، وهو أقل انسجامًا مع نمط النظم الذي تنتهي كل جملة من جمله بلفظة " نبي"، وكلمة " نبي" تختلف دلالتها ففي كل جملة تعني نبيا معينا ــ كما بينا ــ وهي تسير جميعها في مضمار واحد نحو الاحتفاء بشرف نسب صفية ورفعة مكانتها بين نسائه ــ رضي الله عنهن جميعًا ــ وتنكير لفظة "نبي" للتعظيم والتبجيل.

ومن آليات الإقناع البلاغية حشده ــ ﷺ ــ لأدوات التوكيد في كل جملة من الجمل الثلاثة، حيث أكدت بـ إن واللام واسمية الجملة؛ لأنه يراعي حال المخاطبة فهي تحتاج إلى كلام قوي مؤكد، يؤكد لها هذه الأخبار الطريفة الرفيعة الشأن التي غابت عن ذهنها، ويخرج به ما علق في نفسها من معاني النقص التي تشعر به بسبب كفر والدها حيي بن أخطب ، فالتوكيد يتساوق مع المقام؛ وبه يصير الكلام أكثر تأثيرًا وإقناعًا لها.

لا شك أن ذكره ــ ﷺ ــ لتلك الحجج تدعم موقف صفية، وتصل بها إلى الإقناع المبني على حقائق لا شك فيها، كل ذلك يجبر خاطر صفية، ويبدل دموعها فرحًا، وانكسارها عزة وفخرًا، ولولا مسالك الإقناع التي سلكها النبي ــ ﷺ ــ في هذا الموقف المتأزم لما خرج هذا الحوار بهذا الأسلوب العالي من التعامل مع الأزمات.

ثم ختم ــ ﷺ ــ حواره مع صفية بذلك الاستفهام التعجبي المشوب بالإنكار" فَفِيمَ تَفْخَرُ عَلَيْكِ؟!" تعجب من غفلتها عن هذا النسب العالي، ومما يؤيد معنى التعجب أن صفية وحفصة يشتركان في هذا النسب كما يقول صاحب لمعات التنقيح: "فإن قلت: أليست حفصة ابنة بني إسماعيل لأنها قرشية، وعمها نبي وهو إسحاق، وتحت نبي، وهو النبي ــ صلى اللَّه عليه وسلم ــ ؟ قلت: المراد هذه الصفات مشتركة بين نسائه

ــ صلى اللَّه عليه وسلم ــ اللاتي من قريش، وصفية أيضًا مشاركة لهن فيها؛ لأن موسى وهارون من أولاد يعقوب بن إسحاق ــ عليهم السلام ــ أو المقصود دفع المنقصة عن صفية بأنها ــ أيضًا ــ تجمع صفات الفضل والكرم." [1] والفاء الفصيحة التي في رأس الاستفهام تفصح عن شرط محذوف تقديره: إذا فخرت عليك حفصة ففيم تفخر وأنت ابنة نبي...، أي ما كان لها أن تفخر عليك حفصة، فأنكر وقوع المفاخرة من حفصة ــ رضي الله عنها ــ وتعجب من فخرها عليها، وصفية كريمة الأحساب شريفة المناقب، جمعت من الأحساب والأنساب الكريمة مثلها تمامًا بتمام، وهذه الجملة من حسن الختام ؛ فهي تشير إلى انتهاء الكلام، وأن المتلقي ليس له تشوف أو حاجة إلى كلام جديد بعدها في هذا الحوار.

ولما كان من تمام تطييب خاطر الزوجة المعتدي عليها زجر الزوجة التي صدر منها الاعتداء؛ لذا وجه ــ ﷺ ــ خطابه إلى حفصة زجرًا ومخوفًا لها، فقال " اتَّقِي اللَّهَ يَا حَفْصَةُ " الأمر بالتقوى قصد به الزجر والتحذير لها، وقدم ــ ﷺ ــ الأمر بالتقوى على ندائها ــ إذ الأصل أن يقدم النداء؛ لأنه أسلوب تنبيه ــ وناداها بـ "يا" الموضوعة لنداء البعيد؛ إنكارًا عليها وإقصاء لها عن محل الإنس والقرب في الحوار؛ لعلها تتنبه فتبادر بالتوبة المأمورة بها.

هذا الزجر يلقي في نفس صفية ــ رضي الله عنها ــ الرضا والقناعة ويطيب خاطرها ويخوف حفصة ــ رضي الله عنها ــ من الوقوع في مثل الأمر مرة ثانية، ومن الأثر الفاعل لهذا الأسلوب النبوي المقنع أننا لم نسمع بتكرار هذا الموقف مرة أخرى من حفصة لصفية ــ رضي الله عنهما ــ .

---

(١) لمعات التنقيح في شرح مشكاة المصابيح لعبد الحق بن سيف الدين الدِّهلوي ، تح: ا.د/ تقي الدين الندوي ج ٩/ص ٧٣٧ ــ ط: دار النوادر، دمشق – سوريا ــ ط: الأولى، ١٤٣٥ هـ – ٢٠١٤ م

الحديث الثاني

قَالَتْ جُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ ـ رضي الله عنها ـ لِرَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ : إِنَّ أَزْوَاجَكَ يَفْخَرْنَ عَلَيَّ يَقُلْنَ: لَمْ يَتَزَوَّجْكِ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ إِنَّمَا أَنْتِ مِلْكُ يَمِينٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ : «أَلَمْ أُعَظِّمْ صَدَاقَكِ، أَلَمْ أُعْتِقْ أَرْبَعِينَ رَقَبَةً مِنْ قَوْمِكِ »[1]

إن زواج النبي ــ ﷺ ــ من أم المؤمنين جويرية بنت الحارث ـــ رضي الله عنها ــ لم يكن زواجا تقليديا كغالب أزواجه ــ رضي الله عنهن ــ وإنما وقعت جويرية في السبي، ثم أعتقها النبي ــ ﷺ ــ ثم تزوجها [2]، فهي زوجة حرة كباقي زوجاته الحرائر، لكنّ نساء النبي ــ رضي الله عنهن ــ اتخذن من ذلك الموقف شبهة يفخرن

(١) المستدرك للإمام الحاكم، ج٤/ص٢٧، حديث رقم (٦٧٧٨)، وقال عنه الألباني إسناده مرسل صحيح.
الصداق: مهر المرأة . ينظر اللسان (مادة ص د ق ج١٠/ ص١٩٧) .

(٢) عن عائشة قالت: لما قسم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – سبايا بني المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث في السهم لثابت بن قيس ابن الشماس أو لابن عم له، فكاتبته على نفسها وكانت امرأة حلوة ملاحة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله تستعينه في كتابتها، قالت عائشة: فو الله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها، وعرفت أنه سيرى منها ما رأيت، فدخلت عليه، فقالت: يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن الشماس أو لابن عم له، فكاتبته على نفسي فجئتك أستعينك على كتابتي قال: فهل لك في خير من ذلك؟ قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: "أقضي عنك كتابتك وأتزوجك"، قالت: نعم يا رسول الله، قال: "قد فعلت" قالت وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قد تزوج جويرية ابنة الحارث فقال الناس: أصهار رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأرسلوا ما بأيديهم، قالت: فلقد أعتق بتزوجيه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها" .
ينظر السيرة النبوية لابن هشام٢/ ٢٩٥،تح: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبدالحفيظ الشلبي ج ٢/ ص٢٩٥، ط: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ط: الثانية، ١٣٧٥هـ – ١٩٥٥ م.

بها على جويرية يقلن لها" لَمْ يَتَزَوَّجْكِ رَسُولُ اللَّهِ ـ ﷺ ـ إِنَّمَا أَنْتِ مِلْكُ يَمِينٍ " يقصدن بتلك المقولة أنها ليست حرة، إنما هي أمة، ملك يمين لرسول الله ــ ﷺ ــ وليست زوجة له.

ومقتضى ظاهر الحوار أن يرد النبي ــ ﷺ ــ على جويرية ــ رضي الله عنها ــ بقوله: أنت زوجتي؛ فَلِم يفخرن عليك، أو نحو ذلك، لكن مثل هذا الرد لا يتناسب مع ما تنطوي عليه نفس الزوجة المكلومة من هاجس الرق الذي اتخذنه صواحبها ذريعة للفخر عليها؛ لذا عدل ــ ﷺ ــ عن ذلك إلى الرد المقنع الذي يحمل بين ثناياه الأدلة الساطعة والبراهين القاطعة التي تدحض شبهة أنها ملك يمين، ويطيب خاطرها، فقال : « أَلَمْ أُعَظِّمْ صَدَاقَكِ، أَلَمْ أُعْتِقْ أَرْبَعِينَ رَقَبَةً مِنْ قَوْمِكِ » ولا يخفى على ذي لب الفارق الجلي بين هذا الرد وبين لو رد ــ ﷺ ــ ردًا مباشرًا :إنك زوجتي.

يتبوأ الرد النبوي بطريق الاستفهام التقريري ذروة أساليب الإقناع النفسي « أَلَمْ أُعَظِّمْ . . . ، أَلَمْ أُعْتِقْ . . . » لما فيه من دعوة إلى تحكيم العقل، والرجوع بالذاكرة إلى تلك الأحداث والوقائع التي تثبت بالدليل القاطع أنها حرة مثلهن تمامًا بتمام، وهذا من شأنه أن يحمل جويرية ــ رضي الله عنها ــ على الإقرار والاعتراف بصحة وقوع تلك الأحداث، فإذا ما أقرت بذلك كان إقرارها تصديقًا وإذعانًا واقتناعًا ذاتيًّا بأنها حرة مثلهن، وهذا من أقوى طرق اليقين النفسي الداخلي الذي لا يحتاج إلى طرف خارجي يؤكد للمتلقي صحة الخبر، يقول د/ عزالدين السيد : " والرسول الكريم ــ عليه الصلاة والسلام ــ يتخذ من الاستفهام بابًا واسعًا لتقرير المعاني ولزيادة الإيضاح...ليصل عن طريق الاعتراف إلى الاقتناع"[1]

وحين تتأمل صياغة عناصر الإقناع النبوي في هذا الحوار فأول ما تقع عليه العين ويلحظه الفكر من آليات الإقناع البلاغية تصدير الكلام بهمزة الاستفهام الداخلة

(١) الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية د/كمال عزالدين ص٣٦١.

على حرف النفي « أَلَمْ أُعَظِّمْ صَدَاقَكِ، أَلَمْ أُعْتِقْ أَرْبَعِينَ رَقَبَةً مِنْ قَوْمِكِ » واذا دخلت همزة الاستفهام التقريري على أداة النفي عاد الكلام إيجابًا، فهو بمعنى " عظمت ... أعتقت..." وإن كان الاستفهام التقريري المنفي يفسر بمعنى الخبر إلا أن صيغة الاستفهام التقريري أبلغ دلالة في هذا المقام من صيغة الخبر؛ لأن الأسلوب الخبر يلقي الحكم صريحًا مواجهًا لشبهة أنها ملك يمين، دون أن يثير عقل الزوجة ويشاركه في إنتاج الجواب الداخلى لتلك الشبهة، ولا شك أن المشاركة بطريق الإقرار أعمق تأثيرًا في النفس، وأدعى إلى الوصول إلى ذروة الاقتناع الذاتي بطريق النظر والفكر وسؤال النفس، ثم الإقرار بما تعلم من صحة زواجها برسول الله ــ ﷺ ــ وهي حرة مختارة .

وقد تخير ــ ﷺ ــ السؤالين التقريريين بعناية فائقة؛ ليدفع بهما هواجس الرق التي سيطرت على فكر زوجته ، وليرسخ في ذهنها أنها زوجة له مثل بقية أزواجه، ولا يحق لهن الفخر عليها، فصاغ السؤال الأول عن الصداق" أَلَمْ أُعَظِّمْ صَدَاقَكِ؟" وإعطاء الصداق دليل على حريتها، وأنها زوجة له؛ لأن ملك اليمن ليس لها صداق [1]، والتعبير عن إعطاء المهر بفعل التعظم "أعظم" فلم يقل "أعطك" لأن تعظيم صداقها يوحى برفعة مكانتها ، وعظم شأنها عنده، فهو لم يعطها مهرها فحسب بل عظّمه لها، وهذه الصيغة تتناغى مع مقام تطييب الخاطر؛ لأنها تؤكد أنها حرة قد خرجت من قيود الرق إلى فضاء الحرية الذي يستوجب هذا الصداق العظيم، وإقرارها بأخذ الصداق دليل اقتناع منها أنها زوجته وليست ملك يمين.

ثم اعتنى ــ ﷺ ــ بالسؤال الثاني اعتناء جليًّا؛ ليثبت لها بطريق اليقين الذي لا شك فيه أنها حرة، وأنها ليست ملك يمين، فقال:" أَلَمْ أُعْتِقْ أَرْبَعِينَ رَقَبَةً مِنْ قَوْمِكِ " فإذا كان

(١) ودليل ذلك أن النبي ــ ﷺ ــ أدى عنها المال الذي كاتبت عليه ثابت بن القيس ــ رضي الله عنه ــ فأعتقها من قيود الرق ثم تزوجها، وجعل مهرها عتقها. ينظر هامش(١) ص٧٠٧ من هذا البحث .

ــ ﷺ ــ أعتق هذا العدد من قومها، وأعتق المسلمون ما في أيديهم من أسرى قومها، فمن البديهي أن يبدأ ــ ﷺ ــ بعتق من كانت سببًا في عتق هذا العدد، إذ من غير المعقول أن يعتق قومها، ويبقيها هي في قيود الرق وذل العبودية، فدل ذلك بطريق الحجة العقلية أنه تزوجها ــ ﷺ ــ وهي حرة مختارة في زواجها منه، وعبر عن المعتوقين من رجال ونساء قومها بلفظة "رقبة" على سبيل المجاز المرسل لعلاقته الجزئية، والتعبير المجازي يتناغى مع سياق تطييب الخاطر ومراعاة المشاعر ورفع الأقدار، فقد خرجوا بفضل زواجه منها من مهانة العبودية وتملك الرقاب إلى شرف الحرية وعزها، وهذا دليل ساطع وموقف مقنع منه ــ ﷺ ــ كشف به عن علو قدرها ورفعة منزلتها وسمومكانتها، وشهد به شهادة عملية أن المعتوقين هم أصهاره، ولا ينبغي أن يترك أصهاره في قيود الرقة كرامة لزوجته الحرة.

الحديث الثالث

عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ ـ رضي الله عنه ـ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ـ ﷺ ـ فِي وَجَعِهِ الَّذِي تُوُفِّيَ مِنْهُ اجْتَمَعَ إِلَيْهِ نِسَاؤُهُ، فَقَالَتْ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ ـ رضي الله عنها ـ « أَمَا وَاللَّهِ يَا نَبِيَّ اللَّهِ، لَوَدِدْتُ أَنَّ الَّذِي بِكَ بِي، فَتَغَامَزْنَهَا أَزْوَاجُ النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ فَأَبْصَرَهُنَّ رَسُولُ اللَّهِ ـ ﷺ ـ فَقَالَ: «مَضْمِضْنَ»، قُلْنَ: مِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «مِنْ تَغَامُزِكُنَّ بِصَاحِبَتِكُنَّ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهَا صَادِقَةٌ » [1].

اجتمع نساء النبي ـــ ﷺ ــ ورضي الله عنهن ـــ حوله في مرضة الذي توفي فيه، فقالت صفية ــ رضي الله عنها ــ معربة عن أسفها لمرض رسول الله ــ ﷺ ـــ كاشفة عن صدق حبها، متمنية أن تحمل عنه ما يجد من الألم، فقالت " أَمَا وَاللَّهِ يَا نَبِيَّ اللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنَّ الَّذِي بِكَ بِي " حشدت ــ رضي الله عنها ــ في كلامها ضروبًا من التوكيد، بدأت بحرف التنبيه والتوكيد "أما" ليتنبه إليها رسول الله ــ ﷺ ــ وليرعها سمعه بإصغاء، ثم أكدت مقولتها بـ"القسم واللام وأنّ" والداعي إلى هذا التوكيد هو إبراز صدق رغبتها فيما عرضت عليه، ونقل إحساسها وانفعالها قويًا إليه كما خالج هذا الإحساس نفسها، يقول د/ محمد أبوموسى " وهناك ضروب من التوكيد لا ينظر فيها إلى حال المخاطب، وإنما ينظر فيها المتكلم إلى حال نفسه، ومدى انفعاله بهذه الحقائق، وحرصه على إذاعتها، وتقريرها في النفوس كما أحسها مقررة أكيدة في نفسه، وهذا اللون كثير جدًا، وله مذاقات حسنة." [2] وعبرت ــ رضي الله عنها ــ عن وجع النبي ــ ﷺ ـــ باسم الموصول "الذي" فلم تقل " وددت أن وجعك بي" كراهية أن تضيف لفظة الوجع والألم

(١) الجامع في الحديث لابن وهب لأبي محمد عبد الله بن وهب تح: د مصطفى حسن. ص ٦٥٥، ط : دار ابن الجوزي ــ الرياض ، ط : الأولى ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م .

(٢) خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني د/محمد أبو موسى. ص ٩١، ط : مكتبة وهبة، ط: السابعة .

إلى رسول الله ــ ﷺ ــ كما أن اسم الموصول يقرر الغرض المسوق إليه الكلام، وهو تمنيها أن تحمل عنه ما يجد من ألم.

حينما سمع أزواج النبي ــ رضي الله عنهن ــ من صفية ــ رضي الله عنها ــ هذا التمني الصدوق الجذاب المستحوذ على الانتباه جرت الغيرة في نفوسهن " فَتَغَامَزْنَهَا أَزْوَاجُ النَّبِيِّ " طعنًا في صدقها، وأنها قالت ذلك تملقًا، والإشارة بالغمز في هذا المقام أبلغ من التصريح؛ احتراما لهيبة رسول الله ــ ﷺ ــ ومراعاة لحال مرضه، وتغامزهن يقوم مقام البيان اللفظي الطاعن في صدق مقولتها، وقد عد البلاغيون الإشارة نوعًا من البلاغة " وقد حصر الجاحظ أنواع البيان بخمسة لا تزيد ولا تنقص، هي اللفظ والإشارة والعقد والخط والحال، وهو يعتبر الإشارة بالجوارح كاليد والطرف والحاجب مرفقًا كبيرًا يعين الناس في أمور يحاولون سترها عن البعض دون البعض، ولولاها لم يستطيعوا التفاهم في معنى خاص الخاص "[1]

هذا التغامز جَرَح مشاعر صفية ــ رضي الله عنها ــ جرحًا لا يندمل إلا ببيان مقنع من رسول ــ ﷺ ــ يجبر خاطرها المنكسر، ويمسح بيد حانية على مشاعرها المحطمة؛ لذا لم يتوان ــ ﷺ ــ لحظة في إصدار بيان موجز مقنع.

ولما كان من تمام تطييب خاطر الزوجة المعتدي عليها أن يزجر ويوبخ من تسببن في الاعتداء؛ ليكون الزجر طريقًا إلى إقناعهن ببشاعة ما وقعن فيه من خطأ، فقد استهل ــ ﷺ ــ بيانه بزجر أزواجه ــ رضي الله عنهن ــ وتوبيخهن لتغامزهن، قائلا لهن: «مَضْمِضْنَ» أمرهن بالمضمضة، والأصل في المضمضة تحريك الماء في الفم أو في الإناء لغسله[2] فدل ذلك على أن الفعل هنا مجاز على سبيل الاستعارة التبعية، حيث اشتق من المضمضة بمعنى الاستغفار فعل الأمر مضمضن بمعنى استغفرن، بجامع

(١) مقدمة البيان والتبيين ص ١١

(٢) ينظر لسان العرب مادة (مضض ج٧/ ص٢٣٤)

التطهير في كل ، والاستعارة أبلغ في تصور بشاعة جرم التغامز، كأنهن قد لُكْنَ عرض صفية حينما طعن في صدقها، وهذا يستوجب التطهر منه بالمضمضة من أثر ما أكلن من عرضها فالمضمضة تطهر الفم مما علق فيه من أشياء حسية، والاستغفار من الذنب يطهر النفس من أثر الذنب وهو أثر معنوي، وهذه الاستعارة مستوحاة من قول الله ــ تعالى ــ في التحذير من السخرية واللمز والغيبة ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيم﴾[الحجرات:١٢] ، فالاستعارة النبوية تجري على المنهج القرآني في تبشيع وتقبيح صورة من صور السخرية والطعن، وهي التغامز.

وقد أثار هذا المعنى المجازي للأمر بالمضمضة نفوس أزواج النبي ـــــ رضي الله عنهن ـــــ فبادرن بسؤاله ــ ﷺ ــ " قُلْنَ: مِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ " أي من أي شيء نتمضمض، ولم نأكل شيئا؛ فلفت ــ ﷺ ــ بالاستعارة انتباههن إلى أنهن أكلن عرض صفية، تبشيعا لما وقعن فيه من إثم التغامز، فقال: "مِنْ تَغَامُزِكُنَّ بِصَاحِبَتِكُنَّ " من بيانية، وأضاف التغامز إليهن بضمير الخطاب إضافة تقريع وتأنيب؛ ليتحسرن على ما كان منهن، وكنى عن صفية بالصاحبة، لما في هذا الوصف من تبكيت شديد لهن؛ لأن ما وقعن فيه مجاف لحقوق الصحبة التي لم يحفظنها، وهذا الأسلوب الحاد يدفعهن للاعتراف بأنهن قد أخطأن في حق صفية ــ رضي الله عنها ــ ومن ثم يعترفن بخطئهن فيسارعن إلى الاستغفار والندم ثم التوبة منه، وهذا هو الغاية العظمى لأسلوب الإقناع .

ثم انتقل ــ ﷺ ــ من التقريع والتأنيب لأزواجه اللائي وقعن في إثم التغامز إلى جبر خاطر صفية ـــــ رضي الله عنهن جميعا ـــــ واضعا خطابه لها في قالب من أساليب الإقناع والترضية، فقال: " وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهَا صَادِقَةٌ " تكاثرت في هذه الجملة الموجزة عناصر التوكيد التي تثبت صدق صفية، حيث قدم اسم الجلالة "الله" على الخبر الفعلي

"يعلم" وأكده بـ"إن" واسمية الجملة، تقوية للخبر، وفي استدلاله ــ ﷺ ــ بعلم الله بصدق صفية ــ رضي الله عنها ــ تنويه بشأنها وإشادة وإطراء لها بإثبات شهادة الله لها بصدقها، ولا شك أن هذه الإشادة الجليلة تطيب نفس صفية، وتجبر خاطرها، وتشفي جرحها النفسي، وفيه ــ أيضًا ــ تبكيت وتوبيخ شديد لأزواجه لظنهن أن صفية ــ رضي الله عنهن ــ قالت ذلك تملقًا لا صدقًا والله يشهد بصدقها، وهذا عكس ما ظنن، وكفى بالله شهيدًا على صدقها، وهذا لا شك يصل بهن إلى الاقتناع التام بأنهن قد أخطأن في حق صفية، فيبادرن بالتوبة والعزم على عدم الوقوع في مثله مرة أخرى.

ولعل نفس المتلقي تتساءل لِمَ اكتفى ــ ﷺ ــ بالإخبار بأن الله يعلم صدقها؟ ولم يقل وأنا أعلم صدقها.

ويبدو لي أن الباعث على ذلك هو أن الصدق في التمني فعل قلبي لا تعاينه النفوس ولا يطلع عليه أحد إلا الله ــ عز وجل ــ ، فاكتفى بذكر الله وحده ؛ لأنه هو المطلع على ما في الصدور، وما تحمله النوايا، فعلمه ــ تعالى ــ دليل ساطع لا يدع مجالًا للشك والارتياب في صدقها، كما أن الاكتفاء بعلم الله يتساوق ــ أيضًا ــ مع حالة الغيرة المسيطرة على أزواجه، فما دفعهن إلى الطعن في صدق صفية إلا الغيرة المفرطة في حب النبي ــ ﷺ ــ فلو ذكر شهادته بصدقها عقب شهادة "الله" لحرك ذلك وهج الغيرة عندهن ، وأثار كوامنها في نفوسهن، فراعى بهذا الاكتفاء حالهن من الغيرة عليه.

المبحث الثالث

بلاغة الإقناع في سياق الإرشاد والتعليم

إن إرشاد وتعليم الزوجة ما ينفعها في دينها ودنياها بالرفق والحكمة والموعظة الحسنة من أعظم واجبات الحياة الزوجية، وبدونه تفسد حياة الأسرة، وهو منهج نبوي أصيل، فقد كان ــ ﷺ ــ مع أزواجه ــ رضي الله عنهن ــ دائم النصح والإرشاد والتعليم والدعوة إلى الخير، والنهي عن الوقوع في غيره بخطاب هادئ؛ ليصل بعقولهن إلى ذروة الإقناع، وبوجدانهن إلى سنام الرضا والقبول؛ ليُقبلن على المطلوب فعله إقبال الراغب المتشوق، ويحجمن عن المنهي عنه إحجام الخائف الحذر، وقد حفل حوار النبي ــ ﷺ ــ مع أزواجه ــ رضي الله عنهن ــ بعدد كبير من مواقف الإرشاد والتعليم، ومنها ما يلي:

الحديث الأول

عَنْ عَائِشَةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ أَنَّ يَهُودَ أَتَوُا النَّبِيَّ ـ ﷺ ـ فَقَالُوا: « السَّامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: عَلَيْكُمْ، وَلَعَنَكُمُ اللَّهُ، وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ، قَالَ: «مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ، وَإِيَّاكِ وَالعُنْفَ وَالفُحْشَ » قَالَتْ: أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ: « أَوَلَمْ تَسْمَعِي مَا قُلْتُ؟ رَدَدْتُ عَلَيْهِمْ، فَيُسْتَجَابُ لِي فِيهِمْ، وَلاَ يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِيَّ »[1].

يبرز هذا الحوار جانبًا من إرشاد وتعليم رسول الله ــ ﷺ ــ لأزواجه ــ رضي الله عنهن ــ ففي هذا المقام يرشد ــ ﷺ ــ أم المؤمنين عائشة ــ رضي الله عنها ــ عندما أساء بعض اليهود الأدب معه، فقالوا له " السَّامُ عَلَيْكُمْ " أي الموت عليكم، وهم بذلك يوهمون النبي ــ ﷺ ــ ومن معه أنهم يحيونهم بتحية الإسلام "السلام عليكم"، وذلك لما بين لفظتي السلام والسام من مجانسة، ما فعله اليهود أهاج مشاعر عائشة ــ رضي الله عنها ــ وأثار سلوكها، فردت عليهم غضبًا وحمية وانتصارًا لرسول الله ــ ﷺ ــ [2] قائلة: " عَلَيْكُمْ ، وَلَعَنَكُمُ اللَّهُ، وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ " .

---

(١) صحيح البخاري ج ٨/ ص١٢، حديث (٦٠٣٠).
السام : الموت. الفحش: الأصل في الفحش هو القبيح من القول والفعل، وأراد بالفحش هنا التعدي في القول والجواب لا الفحش الذي هو من قذع الكلام ورديئه . ينظر لسان العرب (مادة سوم ج ٢١/ص٣١٣، ومادة فحش ج٦/ص٣٢٥)

(٢) لم ترد ــ رضي الله عنها ــ على اليهود إلا بعد أن تكرر هذا الفعل منهم كما في رواية ابن خزيمة " عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: دَخَلَ يَهُودِيٌّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ــ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ــ فَقَالَ: السَّأْمُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَعَلَيْكَ» ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ فَهِمَمْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ فَعَلِمْتُ كَرَاهِيَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِذَلِكَ فَسَكَتُّ، ثُمَّ دَخَلَ آخَرُ، فَقَالَ: السَّأْمُ عَلَيْكَ، فَقَالَ: «عَلَيْكَ» ، فَهَمَمْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ فَعَلِمْتُ كَرَاهِيَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِذَلِكَ، ثُمَّ دَخَلَ الثَّالِثُ، فَقَالَ: السَّأْمُ عَلَيْكَ، فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى قُلْتُ: وَعَلَيْكَ السَّأْمُ وَغَضَبُ اللَّهِ وَلَعْنَتُهُ إِخْوَانَ الْقِرَدَةِ وَالْخَنَازِيرِ،..."ينظر صحيح ابن خزيمة، لأبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة ج١/ص ٢٨٨، حديث رقم (٥٧٤)، تح: د/ محمد مصطفى الأعظمي، ط: المكتب الإسلامي – بيروت. وهذه الرواية تكشف قوة وصبر عائشة، وعدم اندفاعها في الرد.

ردت عليهم بمثل ما قالوا وزادت "ولعنكم الله وغضب الله عليكم" وهي جمل خبرية قصد بها الدعاء، والدعاء بصورة الخبر أكثر انسجاما في هذا المقام ؛ لأن صورة الخبر توجه الكلام مباشرة إلى اليهود المعتدين على رسول الله ــ ﷺ ــ ، أما صورة الدعاء الأصلية فهي توجه الكلام مباشرة إلى الله ــ عز وجل ــ في صورة التضرع والرجاء، كأن تقول: "اللهم العنهم...." وهي أقل تساوقًا مع شدة انفعالها ــ رضي الله عنها ــ من فعل اليهود، كما أن الصيغة الخبرية تشعر المدعو عليهم بتحقق وقوع الدعاء عليهم، فكأن الدعاء قد حدث ووقع وتحقق اللعن والغضب عليهم من قبل الله ــ عز وجل ــ وهي تخبر عنه.

ما فعلته عائشة ــ رضي الله عنها ــ يحتاج إلى إرشاد وتعليم محاط بأساليب الإقناع والتأثير التي تتناسب مع حالها تجاه هذا الموقف ، فأرشدها ــ ﷺ ــ إلى الصواب قائلا لها : « مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ، وَإِيَّاكِ وَالعُنْفَ وَالفُحْشَ » طلب منها التروي في الرد وتجنب الكلمات التي تثير الخصومة والمعاداة.

وأول ما يطرق السمع ويجذب الانتباه من وسائل الإقناع هو افتتاح الحوار معها بتلك الجملة اللطيفة الرقيقة " مَهْلًا يَا عَائِشَةُ " أمرها بالتريث والتأني في الرد بتلك الجملة المرهفة التي لا تجرح المشاعر ولا تخدش الكرامة، ثم أعقب الأمر بالنداء؛ لتتهيأ إلى سماع ما سيلقى عليها، فتصغي إليه وتتطلع إلى سماعه، فالنفوس جبلت على التجاوب والانصياع للعرض الرقيق الذي يحترم ذات المخاطب ولا يعنفه، وهذا المسلك من أرقى وأسمى الطرق المؤدية إلى استمالة المخاطب والوصول به إلى الإقناع العقلي بقبول الإرشاد، والمسارعة إلى تنفيذه على أكمل وجه وأحسنه.

بعد هذه التهيئة شرع ــ ﷺ ــ في تقديم نصحه واضعًا إياه في سبك محكم بأساليب الإقناع، فأمرها بالرفق ونهاها عن الفحش بأسلوبي الإغراء والتحذير، فقال: « عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ، وَإِيَّاكِ وَالعُنْفَ وَالفُحْشَ » والإغراء والتحذير من أساليب تقرير وتأكيد المعاني في

النفوس، وتحمل دلالاتهما معاني التنبيه والتحفيز والإلزام بتحقيق المغرى به، وتجنب المحذر منه، بألطف أسلوب، وأبلغ عبارة، وأوجز لفظ، والتلطف والاقتصاد في اللفظ يلائمان مقام النصح والإرشاد، وقد ازداد أثر هذين الأسلوبين قوة في النفوس باجتماعهما معا، فحدث بينهما تقابل بين المغرى به والمحذر منه " فعليك تضاد إياك، والرفق يضاد العنف" والتقابل يربط المعنى في النفوس ربطًا وثيقًا، فكل معنى يستدعي ضده عند التذكر، والتذكر والاستدعاء مقصد أصيل من مقاصد النصح والإرشاد، فالمخاطب إذا تذكر الفعل الحسن بادر إلى فعله، وإذا تذكر الفعل القبيح أحجم عن الوقوع فيه، وإذا وصل المتلقي إلى هذا الحد من الربط كان ذلك دليلًا دامغًا على اقتناعه ورضاه بما قُدم إليه من نصح وإرشاد.

وقد عطف ــ ﷺ ــ "الفحش" على" العنف" من باب عطف الخاص على العام؛ لأن الفحش المقصود هنا هو التعدي في القول، والتعدي لون من ألوان العنف، وهذا العطف ضرب من ضروب توكيد الكلام، فكأن الفحش ذكر مرتين، مرة مجملا بين ثنايا معاني لفظة العنف، ومرة قصد بلفظه وذاته؛ لأنه هو المقصد الرئيس لهذا الإرشاد؛ فذكره على سبيل الخصوص بعد ذكره في العموم يزيد من اهتمامها به، ومن ثم تزداد قناعتها بالبعد عنه.

ثم كشفت ــ رضي الله عنها ــ بطريق الاستفهام التقريري عن سبب انفعالها ودعائها عليهم، فقالت للنبي ــ ﷺ ــ (أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا ؟) لتدفع عن نفسها لوم النبي ــ ﷺ ــ لها بسبب ما فعلت، فقابل ــ ﷺ ــ سؤالها بسؤال تقريري مشوب بالإنكار عليها، فقال ــ ﷺ ــ " أَوَلَمْ تَسْمَعِي مَا قُلْتُ ؟ " أي رددت عليهم "وعليك" أي وعليك السام، والجواب بالاستفهام أوجز لفظًا، وأغنى تأثيرًا وفكرًا وإقناعًا؛ لأن الاستفهام التقريري يحمل عائشة ــ رضي الله عنها ــ على الإقرار بأنها سمعت إجابة النبي ــ ﷺ ــ التي

لم يتجاوز فيها في الرد عليهم، والإقرار بسماعها ألزم بالحجة وأقنع لها، وبهذا تسارع إلى العمل بمقتضى ما سمعت، والسير على نهج النبي ــ ﷺ ــ في مثل هذه المواقف.

وفي قوله ــ ﷺ ــ " وعليك " أي وعليك السام، مدارة[1] بليغة، بإيجاز الرد بالدعاء عليهم بمثل ما دعوا عليه دون إفحاش في القول أو إظهار للعداوة ، يقول صاحب المرقاة " وأما عائشة – رضي الله تعالى عنها – فقد زادت في المعنى، وتعدت عن المبني ، وتركت طريق التلطف، واختارت سبيل العنف، ولذا أرشدها ـــ ﷺ ــ إلى الرفق المبني على باب المداراة وترك المعاداة والمعاناة" [2] ولا شك أن تلك الطريقة النبوية تكسب عائشة ــ رضي الله عنها ــ فنًا من فنون الرد والتعامل مع الغير، به تتجنب المعادة الظاهرة مع خصومها، وهذا التعلم والاكتساب دليل على الاقتناع بما وقعت فيه من خطأ حين تجاوزت في الرد.

وهذه المداراة قائمة على حذف المسند إليه في قوله ــ ﷺ ـــ "وعليك" فالجار والمجرور متعلق بمحذوف دل عليه سياق الكلام السابق عليه، وهو قول اليهود " السام

(١) عقد كتاب "نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ــ ﷺ ــ " فصلا كاملا عن خلق المدارة في حياة النبي ــ ﷺ ــ ومما جاء في هذا الكتاب" المداراة : خفض الجناح للنّاس، ولين الكلام وترك الإغلاظ لهم في القول. وقال ابن حجر: المداراة الدّفع برفق وفرقوا بين المداراة والمداهنة، "المداراة صفة مدح والمداهنة صفة ذم، والفرق بينهما أن المداري يتلطف بصاحبه حتى يستخرج منه الحق أو يرده عن الباطل، والمداهن يتلطف به ليقره على باطله ويتركه على هواه، فالمداراة لأهل الإيمان والمداهنة لأهل النفاق" ينظر نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، تأليف عدد من المختصين بإشراف الشيخ/ صالح بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي، ج ٨/ص ٣٣٥٧ وما بعدها،ط : دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة ط: الرابعة.

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للهروي ج ٧/ص ٢٩٤١

عليك "والتقدير " وعليك السام"، وقد طوى ـــ ﷺ ـــ ذكر السام في رده عليهم؛ حتى لا يتنبه المخاطبون إلى الرد، فيؤلب قلوبهم، ويهيج نفوسهم إلى الخصومة والعداوة، فترك الذكر أبلغ في هذا المقام، يقول الإمام عبد القاهر عن بلاغة الحذف في مثل هذه المقامات " هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبن "[1] فالحذف هنا أبلغ دلالة من الذكر، وأحسن بياناً من الإفصاح المؤدى إلى إظهار العداوة، والرد بهذا الإيجاز فيه مجازاة للمعتدي بمثل ما اعتدى عليك به في القول مع استعمال الحيل المباحة، وبهذا يتمثل ــ ﷺ ــ قول ربه ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ سورة البقرة : جزء من الآية ١٩٤.

ومن آليات الإقناع البلاغية إنهاء الحوار بحسن الختام، فقال ــ ﷺ ـــ لها " فَيُسْتَجَابُ لِي فِيهِمْ، وَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِيَّ " وهي رسالة أمان واطمئنان منه ــ ﷺ ــ ليسكن نفس زوجته التي ثارت ثورتها بسبب الخوف عليه من أن يصاب بدعوة اليهود، وطباق السلب " يستجاب... ولا يستجاب..." يصور لها الفارق الجلي بين دعائه ــ ﷺ ــ على اليهود ودعاء اليهود عليه، فشتان بين دعاء الأنبياء وبين دعاء من عاداهم، وهذا من شأنه أن يصل بالنفس إلى أعلى درجات الاطمئنان والسكينة، وهذه الجملة بحسن ختامها تشير إلى انتهاء كلامه ــ ﷺ ــ فعندما يسمعها المتكلم يعلم يقينا أنه لا كلام بعدها، وهي جملة جامعة مانعة شافية لخوف زوجته، فهو المعصوم من أذى دعائهم، ودعوته عليهم مستجابة فيهم وفي غيرهم.

(١) دلائل الإعجاز ص ١٤٦ .

الحديث الثاني

عَن هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ ـ رضي الله عنهما ـ قَالَ: أَخْبَرَتْنِي عَائِشَةُ ـ رضي الله عنها ـ « أَنَّ عَمَّهَا أَخَا أَبِي الْقُعَيْسِ جَاءَ يَسْتَأْذِنُ عَلَيْهَا بَعْدَ مَا ضُرِبَ الْحِجَابُ، فَأَبَتْ أَنْ تَأْذَنَ لَهُ حَتَّى يَأْتِيَ رَسُولُ الله ـ صَلى الله عَليهِ وسَلم ـ فَتَسْتَأْذِنَهُ، فَلَمَّا جَاءَ النَّبِيُّ ـ صَلى الله عَليهِ وسَلم ـ ذَكَرَتْ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَتْ: جَاءَ عَمِّي أَخُو أَبِي الْقُعَيْسِ فَرَدَدْتُهُ حَتَّى أَسْتَأْذِنَكَ، قَالَ: أَوَلَيْسَ بِعَمِّكِ؟ ! قَالَتْ : إِنَّمَا أَرْضَعَتْنِي الْمَرْأَةُ وَلَمْ يُرْضِعْنِي الرَّجُلُ ، فَقَالَ: إِنَّهُ عَمُّكِ فَلْيَلِجْ عَلَيْكِ" (١).

هذا الحوار النبوي يكشف عن شيء من ورع وحشمة وعفاف وفقه أم المؤمنين عائشة ــ رضي الله عنها ــ حينما جاء أخو أبي القعيس يستأذن في الدخول عليها، وأبو القعيس هو زوج المرأة التي أرضعت عائشة(٢)، وبهذا يصير أخو أبي القعيس عمًّا لعائشة من الرضاعة، لكنها منعته من الدخول عليها حتى تستأذن رسول الله ــ ﷺ ــ ؛ لظنها أن الرَضاعة لا تُصيّر هذا الرجل عمًا لها، ومن هذا المنطلق دار هذا الحوار النبوي الهادئ، فعلمها ــ ﷺ ــ وأرشدها إلى الحكم المتعلق بهذه الواقعة، وقد وظف ــ ﷺ ــ أساليب الإقناع لإقرار هذا الحكم في نفس عائشة ــ رضي الله عنها ــ .

---

(١) سنن الدارمي لأبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، تح: حسين سليم أسد الداراني باب ما يحرم من الرضاعة، ج٣/ص١٤٤٣، حديث (٢٢٩٤) ـــ ط: دار المغني للنشر والتوزيع المملكة العربية السعودية، ط : الأولى، ١٤١٢ هـ - ٢٠٠٠ م. وقال المحقق: إسناده صحيح .

(٢) أبو القعيس اسمه الجعد وقيل وائل، وأخوه يسمى أفلح. ينظر عمدة القاري شرح صحيح البخاري للإمام بدر الدين العينى ج١٣/ص٢٠٣ ـــ ط: دار إحياء التراث العربي ــ بيروت .

افتتحت عائشة ــ رضي الله عنها ــ حوارها مع النبي ــ ﷺ ــ قائلة له" جَاءَ عَمِّي أَخُو أَبِي الْقُعَيْسِ، فَرَدَدْتُهُ حَتَّى أَسْتَأْذِنَكَ " "أخو أبي القعيس " عطف بيان لـــ"عمي" لإيضاح هذا العم، وأسلوب الإيضاح والتخصيص يناسب مقام الإفتاء ومعرفة الأحكام، وفاء السرعة والتعقيب في "فرددته" تصور سرعة ردها لهذا الرجل وعدم توانيها؛ حتى تسأل رسول الله ــ ﷺ ــ عن الحكم، فتستأذنه فإن إذن لها أذنت له .

ورغم ردّها ــ رضي الله عنها ــ لهذا الرجل إلا أنها مترددة في صحة ما فعلت بدلالة قولها "فَرَدَدْتُهُ حَتَّى أَسْتَأْذِنَكَ" والتردد يحتاج إلى أسلوب هادئ مقنع يبين لها الحكم؛ لذا لم يجبها ــ ﷺ ــ جوابًا مباشرًا، وإنما وجه إليها الجواب في صورة استفهام إنكاري مشوب بالتعجب " أَوَلَيْسَ بِعَمِّكِ؟ !" منكرًا ومتعجبًا من منعها إياه[1] وهو عمها من الرضاعة، فكيف لها أن تمنعه؟ وكأن إباحة دخول العم من الرضاعة على ابنة أخيه أمر معلوم للجميع، فكيف خفي عليها مثل هذا الحكم، والباء في "بعمك " زيدت للتأكيد على أنه عمها، يقول الإمام عبدالقاهر " واعلم أنا وإن كنا نفسر "الاستفهام" في مثل هذا بالإنكار فإن الذي هو محض المعنى: أنه ليتنبه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعيي بالجواب". [2] وفي عدوله ــ ﷺ ــ عن الجواب المباشر إلى

(١) ويؤيد معنى الإنكار الرواية التي جاءت في فتح المنعم شرح صيح مسلم " وفي الرواية السابعة "تربت يمينك –أو يدك" شك من الراوي في أي الكلمتين، وأصل: تربت يمينك التصقت بالتراب، أي افتقرت. لكنها صارت من الكلمات التي أطلقها العرب في مواطن التعجب، دون أن يقصدوا معناها الأصلي، وتقال عند إنكار الشيء، أو الزجر عنه: أو الذم عليه أو استعظامه، أو الحث عليه، أو الإعجاب، والأنسب هنا الإنكار والزجر. ينظر فتح المنعم ج٥ / ص ٦١١.

(٢) دلائل الإعجاز ص١٢٠

الاستفهام يجعل الحوار أكثر حيوية وأثرى تفكيرًا؛ لما للاستفهام من قدرة عالية في التأثير وجذب الانتباه، وإثارة العقل وإشراكه في إنتاج الرد عن اقتناع، وبذلك تزداد النفس قناعة وتسليما.

بهذا الاستفهام اقتنعت ــ رضي الله عنها ــ بجواز دخوله عليها، لكنها استشكل عليها فهم العلاقة بين إرضاع امرأة أخيه وبين جواز دخوله عليها، فقالت للنبي ــ ﷺ ــ مستغربة " إِنَّمَا أَرْضَعَتْنِي الْمَرْأَةُ، وَلَمْ يُرْضِعْنِي الرَّجُلُ " وتبدو ملامح الاستغراب من بين ثنايا نظمها، حيث صدرت كلامها بأداة القصر "إنما" التي تأتي في الخبر المعلوم، فالإرضاع من المرأة أمر بدهي معلوم لا يحتاج إلى دعوى ومزيد تأكيد، قاصدة بذلك أن المرأة هي سبب التحريم وحدها، وليس لزوجها في أمر التحريم من شيء، وعلى هذا يكون القصر قصر قلب؛ لأنها تعتقد عكس الحكم الذي أصدره النبي ــ ﷺ ــ بأن أخا الرجل صار من محارمها؛ لذا أكدت القصر بجملة النفي" وَلَمْ يُرْضِعْنِي الرَّجُلُ " وإثبات الشيء بنفي ضده طريق من طرق التوكيد، ثم قابل بين" أرضعتني، ولم ترضعني" و" الرجل والمرأة" والمقابلة طريق آخر لتوكيد المعنى المتحدث عنه، كل هذه المؤكدات لتزيل استغرابها من هذه النسب الذي جاء عن طريق الرضاعة من المرأة .

ولما كان حال الدهشة المسيطرة على عائشة ــ رضي الله عنها ــ يستوجب خطابًا محاطًا بعناصر الإقناع والتقرير، جاء رده ــ ﷺ ــ كاشفًا عن حسن تعليمه وإرشاده وبراعة عرضه، فقال " إِنَّهُ عَمُّكِ، فَلْيَلِجْ عَلَيْكِ " استهل ــ ﷺ ــ رده عليها بأداة التوكيد "إن" مراعاة لما تنطوي عليه نفسها من خواطر ومشاعر الدهشة والغرابة، فأكد لها الكلام بـ"إن" ليمسح به أثر الدهشة التي بدت عليها، ومن ثم يتقرر ذلك الخبر في نفسها، فتتلقاه بالقبول والاقتناع والعمل على امتثاله وتنفيذ الأحكام المترتبة عليه، ثم أعقب جملة التوكيد بجملة الأمر " فَلْيَلِجْ عَلَيْكِ " وربط بينهما بالفاء الفصيحة المشربة معنى السببية، فأفصح بها عن شرط مقدر، تقديره: فإذا كان عمك فليلج عليك، والمقدر

في حكم الملفوظ به، فكأنه ــ ﷺ ــ أعاد الكلام مرتين، مرة ملفوظًا في قوله "إنه عمك" وأخرى مقدرًا في الشرط المقدر بعد الفاء الفصيحة، وتكرار الشيء سبيل من سبل الإقناع؛ لما فيه من تقرير المعنى الرئيس للحكم وهو أنه عمها، فلا مانع من الدخول عليها، والفاء تشير إلى وجوب سرعة امتثال هذا الأمر، وعدم رده مرة أخرى .

ومن عناصر الإقناع تخيره ــ ﷺ ــ للأمر بصيغة الفعل "يلج" وإيثاره على "يدخل"؛ لأن الولوج مطلق ابتداء الدخول، أما الدخول فيراد منه دخول كل منهما إلى محيط يحويه ويحيطه [1]، والتعبير بالولوج ألطف تعبيرا وأبلغ إشارة في هذا المقام؛ لأنه يتساوق مع حال زوجته التي تستغرب آصرة الدخول عليها، كما أن الجرس الصوتي المجهور لحرف الجيم يشكل إيقاعا صوتيا قويا يتناغى مع مقام التنبيه والإيقاظ من حالة الدهشة والاستغراب المسيطرة عليها، وهو أبلغ دلالة من حرف الخاء المهموس في الفعل "يدخل".

(١) ينظر التحقيق في كلمات القران الكريم الشيخ حسن المصطفوي ج١٣ / ص٢١٧-٢١٩ ط : مركز نشر آثار العلامة المصطفوي ـــ ط: الأولى ١٣٩٣ه .

الحديث الثالث

عَنْ جُوَيْرِيَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ ـ رضي الله عنها ـ قَالَتْ: أَتَى عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ـ ﷺ ـ « غُدْوَةً وَأَنَا أُسَبِّحُ ثُمَّ انْطَلَقَ لِحَاجَتِهِ، ثُمَّ رَجَعَ قَرِيبًا مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ، فَقَالَ: «مَا زِلْتِ قَاعِدَةً» قَالَتْ: قُلْتُ: نَعَمْ قَالَ: « أَلَا أُعَلِّمُكِ كَلِمَاتٍ لَوْ عُدِلْنَ بِهِنَّ عَدَلَتْهُنَّ أَوْ لَوْ وُزِنَ بِهِنَّ وَزَنَتْهُنَّ؟ يَعْنِي بِجَمِيعِ مَا سَبَّحْتِ، سُبْحَانَ اللَّهِ عَدَدَ خَلْقِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، سُبْحَانَ اللَّهِ زِنَةَ عَرْشِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، سُبْحَانَ اللَّهِ رِضَى نَفْسِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، سُبْحَانَ اللَّهِ مِدَادَ كَلِمَاتِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ»(١)

رأى رسول الله ــ ﷺ ــ زوجته جويرية ــ رضي الله عنها ــ قد جلست تذكر الله ــ جل جلاله ــ من بعد صلاة الفجر إلى قريب من نصف النهار، وهو وقت طويل، فعلمها وأرشدها إلى هذا الذكر الموجز لفظًا، العظيم أجرًا؛ تخفيفًا عليها، وتكثيرًا لأجرها، واغتنامًا لوقتها؛ لكي تتفرغ لحاجاتها.

ولما كان المقام مقام إرشاد وتعليم بطريق العرض والمفاضلة بين ما يريد أن يعلمها رسول الله ــ ﷺ ــ وبين ما كانت تردد من أذكار، كان من تمام البيان أن يصوغ ــ ﷺ ــ كلامه مشتملًا على شيء من أساليب الإقناع التي تتناغى مع مقام المفاضلة في سياق التعليم والإرشاد؛ لذا افتتح ــ ﷺ ــ تعليمه وإرشاده بقوله:« أَلَا أُعَلِّمُكِ كَلِمَاتٍ لَوْ عُدِلْنَ بِهِنَّ عَدَلَتْهُنَّ، أَوْ لَوْ وُزِنَ بِهِنَّ وَزَنَتْهُنَّ؟ يَعْنِي بِجَمِيعِ مَا سَبَّحْتِ » استهل كلامه بهذا العرض الجذاب النفيس الذي وضع على رأسه أداة العرض والتشويق "ألا" ليثير انتباهها ويستقطب اهتمامها، ويشوقها إلى الاستماع إليه، ويزداد العرض تأثيرًا في النفس بتنكيره لـ" كَلِمَاتٍ " دلالة على يسرها وعظم شأنها، وتمهيدًا لوصفها بهذا الوصف الجليل " لَوْ

(١) مسند الإمام أحمد . ج٤٤/ص ٣٤٠، حديث(٢٦٧٥٨) ، وقال إسناده صحيح على شرط مسلم .

عُدِلْنَ بِهِنَّ عَدَلْتُهُنَّ ، أَوْ لَوْ وُزِنَ بِهِنَّ وَزَنْتُهُنَّ؟ " يعد هذا الوصف هو العنصر الأهم في إقناعها بفضل الكلمات التي سيعلمها إياها ؛ لذا جاء به على طريقة أسلوب الفرض والتمثيل أي لو كانت هذه الكلمات مما توزن لرجحت تلك الكلمات على غيرها، فالعدل والوزن كلاهما يدل على الموازنة والمقايسة، يقول ابن منظور" وعَدَّلَ المَوازِينَ والمَكاييلَ: سَوَّاها. وعَدَلَ الشيءَ يَعْدِلُه عَدْلًا وعَادَلَه: وازَنَه."(١) وقد عدل ــ ﷺ ــ عن البيان الصريح لأجر هذه الكلمات إلى الفرض والتمثيل مبالغة في رجحان هذه الكلمات وعلو شأنها على ما كانت ترده جويرية ــ رضي الله عنها ــ ، فإذا ما تقرر عندها هذا الفارق الجلي أقبلت على هذا الذكر المعروض إقبال الراغب المتشوق .

ثم جرى الحوار النبوي على أسلوب التمثيل لإقناعها بفضل تلك الكلمات المعروضات؛ لتقبل عليها، فقال ــ ﷺ ــ : « سُبْحَانَ اللَّهِ عَدَدَ خَلْقِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، سُبْحَانَ اللَّهِ زِنَةَ عَرْشِهِ. . .» يقول الإمام السيوطي " وهذا كلام تمثيل يراد به التقريب؛ لأن الكلام لا يقع في المكاييل ولا يدخل في الوزن ونحو ذلك"(٢).

بدأ ــ ﷺ ــ بقوله "سُبْحَانَ اللَّهِ عَدَدَ خَلْقِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ" أي أسبحه تسبيحًا بقدر عدد خلق الله، على سبيل التمثيل لتقريب العدد، وعدد خلق الله لا يبلغه العادون، ولا يحصيه المحصون، وفي هذا تحفيز وإقناع لها لتبادر إلى حفظ هذا الكلمات الموجزات لفظًا المعظمات أجرًا؛ لتغتنم وقتها، وتقييد ترددها بمرات ثلاثة ليس للحصر، إنما للمبالغة في إثبات أن المرات الثلاثة من هذا الذكر أفضل من ذكرها الذي ترده في هذا الوقت

(١) لسان العرب مادة (ع د ل)

(٢) مرقاة الصعود إلى سنن أبي داود لأبي الفضل جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، تح: محمد شايب شريف، ج ١/ص ٤٤٠ ــ ط: دار ابن حزم، بيروت – لبنان ــ ط: الأولى، ١٤٣٣ هـ – ٢٠١٢ م.

الطويل، فكيف إذا زادت على هذا العدد! وهذا من شأنه أن يجعلها أشد إقبالًا عليها وأكثر ترددًا لها؛ لتزداد أجرًا.

ثم استرسل ــ ﷺ ــ في أساليب الإقناع والتحفيز فوظف أسلوب الترقي في التمثيل للكشف عن فضل هذه الكلمات، فترقى من عدد الخلق إلى ما هو أعظم وهو زنة العرش؛ لتزداد قناعة بعظم فضلها، فصوّر ثقل وزن تلك الكلمات ورجحان أجرها في ميزان الحسنات عند الله يوم القيامة بزنة العرش، فقال ــ ﷺ ــ " سُبْحَانَ اللَّهِ زِنَةَ عَرْشِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ " أي بقدر وزن عرش الله الذي هو أعظم مخلوقاته، يقول عنه ــ ﷺ ــ " مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ فِي أَرْضٍ فَلَاةٍ، وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ ، كَفَضْلِ تِلْكَ الْفَلَاةِ عَلَى تِلْكَ الْحَلْقَةِ " [1] وهذا الترقي من العد إلى الوزن يحمل النفس على العزم على تحصيل الشيء المرغب فيه، لتوارد الفضل عليه، وتزاحمه فيه، وهو سبيل إلى زيادة قناعتها للعمل بهذا الكلمات الفاضلات.

ثم انتقل ــ ﷺ ــ إلى عنصر آخر من عناصر الإقناع بفضل تلك الكلمات منتقلا من التمثيل الحسي إلى التمثيل المعنوي وهو رضا الله، فقال: "سُبْحَانَ اللَّهِ رِضَى نَفْسِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ" أي أسبّحه قدر ما يرضاه، وقال السيوطي: قدر رضاه عمن رضي عنهم من النبيين والصديقين والصالحين "[2]. ورضاه ــ سبحانه وتعالى ــ عن هؤلاء رضا غير

(١) موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان للهيثمي تح: حسين سليم أسد – عبده علي الكوشك ج١/ص ١٩٣، حديث (٩٤) ط: دار الثقافة العربية، دمشق، ط: الأولى، (١٤١١ – ١٤١٢ هـ/١٩٩٠ م –١٩٩٢ م.

(٢) الكوكب الوهَّاج والرَّوض البَهَّاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج، جمع وتأليف: محمد الأمين بن عبد الله الهَرَري، مراجعة: لجنة من العلماء برئاسة البرفسور هاشم محمد علي مهدي، ج٢٥/ ص ١٣٤ ، ط: دار المنهاج – دار طوق النجاة ــ ط: الأولى، ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩ م.

منقطع ولا محصور، فدل ذلك على عظم هذه الكلمات عند الله؛ لأن رضا الله مطلب كل نفس مؤمنة، فتزداد النفس مسارعة إلى تحقيق تلك الغاية العظمى، عسى أن تنال هذا الرضا .

ثم ختم ــ ﷺ ــ بيانه عن فضل هذه الكلمات بقوله" سُبْحَانَ اللَّهِ مِدَادَ كَلِمَاتِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ " "قيل معناه مثلها في العدد، وقيل مثلها في أنها لا تنفد، وقيل في الثواب، والمداد هنا مصدر بمعنى المدد، وهو ما كثر به الشيء، قال العلماء واستعماله هنا مجاز؛ لأن كلمات الله لا تنحصر والمراد المبالغة في الكثرة "[1] .ولكي ندرك عظم مداد كلمات الله، نقرأ قوله ــ تعالى ــ{قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا} [الكهف: ١٠٩]. لا}تهى لها، فدل ذلك بطريق المبالغة على عظم هذه الكلمات التي تماثله، ولا شك أن هذا التمثيل البليغ يقرب الأفهام، ويجذب القلوب ويثير الوجدان، فيصير المخاطب في شوق إلى ترددها طمعا في هذا الأجر الوفير.

ومن لطيف هذا الختام التناسب الرائع بين لفظة "المداد" وبين المقصد النبوي من هذا الحديث، وهو حفظه وترداده على الألسنة؛ فالإنسان يكتب بالمداد ما يعتني به وما يريد أن يحفظه من النسيان، فلفظة "المداد" تذكر وتنبه المتلقي على الاعتناء بهذه الكلمات، وأنها مما يجب أن تحفظ ولا تنسى بأي طريقة من طرق الحفظ بالمداد أو بالترداد والذكر؛ لأنها كنز ثمين يجب أن يحفظ.

وهذا الحديث على قرب معناه ووجازة لفظه تجده متلائم الأطراف، تتجارى فقره إلى غرض واحد وهو إثبات الفارق الجلي والفضل الوفير لتلك الكلمات المعروضات على

(١) فتح المنعم شرح صحيح مسلم . د. موسى شاهين لاشين ج ١٠/ص ٢٨٠، ط: دار الشروق، ط: الأولى ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.

ما كانت ترده جويرية ــ رضي الله عنها ــ، فكشف لها عن هذا الفضل جامعا بين العد والوزن والقدر، وهي من أنواع المقادير مراعاة للنظير بين الأوصاف الممثل بها.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد ، ورضي الله عن أزواجه أمهات المؤمنين، وآل بيته الطيبين الطاهرين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبغفرانه تمحى السيئات، وبفضله ترفع الدرجات، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء سيدنا محمد رسول الله ــ ﷺ ــ ، وعلى آل بيته وأزواجه أمهات المؤمنين، وصحبه أجمعين. أما بعد...

فقد كانت تلك الدراسة نوعًا من السياحة العلمية والقلبية التي طوف فيها البحث حول رياض البيت النبوي، فكشف عن شيء من بلاغة الإقناع في حوار النبي ــ ﷺ ــ مع أزواجه، وشأني في هذا البحث شأن كل باحث نهل من مورد البيان النبوي العذب بجد واجتهاد وعزم صادق، فلم يبلغ منه إلا ما بلغ بفضل الله وتوفيقه ـــ سائلًا ربي أن يغفر لي زلاتي وغفلاتي وأن يقيل عثراتي ـــ وقد توصل البحث إلى نتائج وتوصيات ، من أهمها ما يلي:

أولًا: أظهرت الدراسة أن بلاغة الإقناع جزء أصيل من البلاغة العربية، فهي ترتكز ارتكازًا أصيلًا على حال المخاطب، وما يقتضيه مقامه، وما يطلبه من مقال.

ثانيًا: اعتمدت بلاغة الإقناع في حوار النبي ــ ﷺ ــ مع أزواجه على إثارة الحس، وهز المشاعر، واستمالة القلوب، ومخاطبة العقل؛ رغبة في التأثير عليهن، والوصول بهن إلى الاقتناع والرضا والقبول.

ثالثًا: اتسمت الأدلة والبراهين في هذا المقام بالإيجاز السديد الذي يركز على مضمون قضية الحوار؛ للوصول بالزوجة إلى الرضا والقبول بأوجز لفظ .

رابعًا: التوكيد من أكثر الفنون البلاغية ورودًا في أساليب الإقناع، ولم يرد التوكيد في هذا المقام لمواجهة تكذيب أو إنكار حقيقي ــ حاشا لله أن يقع مثل هذا من أمهات المؤمنين ــ إنما جيء به لمحاصرة شعور الزوجة، والتأثير على فكرها في القضية محور الحوار.

خامسًا: أسلوب الاستفهام من أكثر الأساليب التي اعتمد عليها الحوار النبوي في تحقيق عنصر الإقناع؛ لما له من قدرة عالية في التشكل والانسجام حسبما يقتضيه الموقف، فتراه يأتي للعرض والتشويق وإثارة النفوس واستمالة المشاعر نحو القضية المتحدث عنها في سياقات النصح والإرشاد والتعليم، ويأتي للتقرير في سياقات الحوارات الهادئة التي تحتاج إلى نوع من الإقناع الذاتي، وحين تعلو نبرة الحوار يأتي للإنكار والتعجب.

سادسًا: التضاد بمفهومه العام من الفنون البلاغية التي ارتكز عليها الحوار النبوي في تحقيق عنصر الإقناع؛ لما له من قدرة بالغة في تعميق محور الحوار من خلال عرض صورتين أو فكرتين متناقضتين؛ لتميز الزوجة بينهما، فتصل بذلك إلى الإقناع الذاتي، وهذا يرد على من يقولون: إن فنون البديع حلية لفظية، ونمط من أنماط الصنعة .

سابعًا: لكل سياق من سياقات البحث خصائصه الأسلوبية التي تميزه عن غيره، فسياق الغيرة غلب عليه توافر عناصر التوكيد التي تتصدى لمواقف الغيرة، بينما غلب على سياقي الإرشاد وتطييب الخواطر أساليب الاستمالة والتلطف والتشويق التي تتناغم مع المقام .

ثامنًا: لم يكن لأسلوبي الأمر والنهي الحقيقيين دور فاعل في الحوار النبوي لإقناع أزواجه ــ رضي الله عنهن ــ لما بين هذين الأسلوبين والإقناع من تضاد، وكل ما جاء من صيغ الأمر جاء لمعان مجازية كالوعظ والنصح والإرشاد، وقد ورد النهي في مرتين فقط.

المقترحات :

ــ أن يصوب الباحثون دراساتهم حول تلك الأساليب الحوارية التي هي النمــوذج الأمثل في التعامل الأسري، وأن يبرزوا جمالها الأسلوبي؛ ليقتدي بها الأزواج في هــذا العصر الذي استشرى فيه الخرس الزوجي، والشقاق الأسري، فنتج عــن ذلــك كثــرة الطلاق .

ــ إقامة دورات تدريبية في أساليب الرسول ــ ﷺ ــ في التعامل مع المشكلات الزوجية، ووضع الحلول المناسبة لها ، وإقناع الزوجة بها ، من خلال الحــوار الفاعــل المثمر في ترضية الزوجة .

المصادر والمراجع بعد القرآن الكريم

- الإقناع والتأثير دراسة تأصيلية دعوية. د/ إبراهيم بن صالح الحميدان. بحث في مجلة جامعة الإمام. العدد ٤٩ محرم ١٤٢٦هـ.
- الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني تح: محمد عبد المنعم خفاجي ــ ط : دار الجيل ــ بيروت ــ ط: الثالثة.
- بلاغة الإقناع دراسة نظرية وتطبيقية د/ عبدالعالي قادا. ــ ط: دار كنوز المعرفة للنشر والتوريع ، عمان ــ ط: الأولى ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦.
- بلاغة الإقناع في المناظرة د/ عبداللطيف عادل ــ ط: منشورات ضفاف بيروت ، لبنان ــ ط: الأولى ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.
- البلاغة العربية بين الإمتاع والإقناع د/ مسعود بودوخة ـــ ط: دار الكتب العلمية بيروت ـــ ط: الأولى .
- البلاغة العربية لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني ــ ط : دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت ــ ط: الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م
- البيان والتبيين ــ ط : دار ومكتبة الهلال، بيروت ــ ط : ١٤٢٣ هـ .
- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، لابن أبي الإصبع العدواني، تح: د/ حفني محمد شرف ــ ط: الجمهورية العربية المتحدة ــ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ــ لجنة إحياء التراث الإسلامي .
- التحقيق في كلمات القران الكريم،للشيخ حسن المصطفوي، ط : مركز نشر آثار العلامة المصطفوي ــ ط: الأولى ١٣٩٣هـ .
- تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم تأليف: محمد بن فتوح بن عبد الله ابن فتوح بن حميد الأزدي تح:د/ زبيدة محمد عبد العزيز، ط: مكتبة السنة ـــ القاهرة ـــ مصر ـــ ط : الأولى، ١٤١٥م.

- الجامع في الحديث لابن وهب لأبي محمد عبد الله بن وهب تح: د. مصطفى حسن. ط: دار ابن الجوزي ـــ الرياض ، ط : الأولى ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م .
- حاشية السندي على سنن النسائي، لنور الدين السندي ، ط: مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب ـــ ط: الثانية، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م ـــ د ت .
- الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية د/كمال عزالدين ــ دار اقرأ ط: الأولى١٤٠٤هـ ١٩٨٤م.
- خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني د/محمد أبوموسى.ط:مكتبة وهبة، ط: السابعة.
- دراسة بلاغية للأبعاد الحجاجية في الخطاب النبوي الصورة أنموذجا" د/ عزة أحمد مهدي، بحث في مجلة الآداب والعلوم الإنسانية ، كلية الآداب جامعة المنيا، المجلد ٨٨ ــ لعام ٢٠١٩م.
- دلائل الإعجاز للإمام عبدالقاهر الجرجاني، تح: محمود شاكر ـــ ط : مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة، ط: الثالثة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
- رسائل الجاحظ ، لأبي عثمان الجاحظ تح: وشرح: عبد السلام محمد هارون ــ ط: مكتبة الخانجي ، القاهرة ـــ ط : ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م .
- سنن ابن ماجه ، للإمام أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني المشهور بابن ماجة تح: شعيب الأرنؤوط وآخرون، ــ ط: دار الرسالة العالمية، ط: الأولى، ١٤٣٠هـ ـــ - ٢٠٠٩ م .
- سنن الترمذي لمحمد بن عيسى الترمذي، تح وتعليق: أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة، ط: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ــ مصر، ط: الثانية، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م.

- سنن الدارمي لأبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، تح: حسين سليم أسد ــ ط: دار المغني للنشر والتوزيع المملكة العربية السعودية، ط : الأولى ١٤١٢هـ/ ٢٠٠٠ م.
- السيرة النبوية لابن هشام،تح: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، ط: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط : الثانية، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥ م.
- صحيح ابن خزيمة، لأبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة، تح: د/ محمد مصطفى الأعظمي، ط: المكتب الإسلامي – بيروت. د س .
- صحيح البخاري لأبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، تح: محمد زهير بن ناصر الناصر ــ ط: الناشر: دار طوق النجاة ــ ط : الأولى، ١٤٢٢هـ .
- صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج، تح: محمد فؤاد عبدالباقي ــ ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت ــ د ط.
- الطبقات الكبرى لابن سعد ، تح: محمد عبد القادر عطا، وما بعدها ـــ ط: دار الكتب العلمية ـــ بيروت ـــ ط : الأولى، ١٤١٠ هـ – ١٩٩٠ م.
- طرح التثريب في شرح التقريب للعراقي ـــ ط: دار إحياء التراث العربي، ودار الفكر العربي، د ت .
- عمدة القاري شرح صحيح البخاري للإمام بدر الدين العينى، ــ ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت ــ.
- فتح المنعم شرح صحيح مسلم . د. موسى لاشين، ط: دار الشروق، ط: الأولى ١٤٢٣ هـ/ ٢٠٠٢ م.
- الكتاب لسيبويه، تح: عبدالسلام هارون، ط: مكتبة الخانجي ، القاهرة ط: الثالثة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨ م.

- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية تح: عدنان درويش ومحمد المصري، ط: مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ د س .
- الكوكب الوهَّاج والرَّوض البَهَّاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج، جمع وتأليف: محمد الأمين بن عبد الله الهَرَري، مراجعة: لجنة من العلماء برئاسة البرفسور هاشم محمد علي مهدي، ط: دار المنهاج ــ دار طوق النجاة ــ ط: الأولى، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩ م.
- لسان العرب لابن منظور ـــ ط: دار صادر ــ بيروت ــ ط: الثالثة ١٤١٤هـ ــ د ت.
- لمعات التنقيح في شرح مشكاة المصابيح لعبد الحق بن سيف الدين الدِّهلوي، تح: ا.د/ تقي الدين الندوي ــ ط: دار النوادر، دمشق ــ سوريا ــ ط: الأولى، ١٤٣٥هـ / ٢٠١٤ م
- مرقاة الصعود إلى سنن أبي داود لأبي الفضل جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، تح: محمد شايب شريف ـــ ط: دار ابن حزم، بيروت - لبنان ــ ط: الأولى، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢ م.
- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، للملا الهروي القاري ــ ط: دار الفكر، بيروت ــ لبنان ـــ ط : الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.
- المستدرك على الصحيحين للإمام أبي عبد الله الحاكم، تح: مصطفى عبد القادر عطا ــ ط : دار الكتب العلمية - بيروت ـــ ط : الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م .
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، تح: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، ط : مؤسسة الرسالة، ط : الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م .
- معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم . د/ محمد داود ــ ط: دار غريب ــ ط: ٢٠٠٨م .

- معجم اللغة العربية المعاصرة تأليف: د أحمد مختار عمر بمساعدة فريق عمل ـــــ ط: عالم الكتب ــ ط: الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.
- المعجم الوسيط تأليف: مجمع اللغة العربية بالقاهرة ط : دار الدعوة ـــ د ط .
- معجم مقاييس اللغة لابن فارس. تح :عبد السلام هارون، ط:دار الفكر. ط : ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- المقام الخطابي والمقام الشعري في الدرس البلاغي، بحث في مجلة (دراسات سيميائية أدبية لسانية. العدد الخامس، سنة ١٩٩١م.
- منهاج البلغاء وسراج الأدباء تح :محمد الحبيب ـــ ط : دار الغرب الإسلامي ــ ط: ١٩٨٦م.
- موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان للهيثمي تح: حسين سليم أسد - عبده علي الكوشك ــ ط: دار الثقافة العربية، دمشق، ط: الأولى، (١٤١١ - ١٤١٢هـ/١٩٩٠ -١٩٩٢ م.
- نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، تح: عدد من المختصين بإشراف الشيخ/ صالح بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي، وما بعدها، ، ط : دار الوسيلة، جدة ـــ ط: الرابعة.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة.	٦٦٧
التمهيد : فيه ثلاثة محاور :	٦٧٠
المحور الأول: مفهوم الإقناع لغة واصطلاحا. صلة الإقناع بالحوار.	٦٧٠
المحور الثاني: بلاغة الإقناع في التراث العربي، الجاحظ وكتابه البيان والتبيين أنموذجا.	٦٧٣
المحور الثالث: الآليات البلاغية للإقناع في حوار النبي ـــ ﷺ ـــ مع أزواجه.	٦٧٦
المبحث الأول: بلاغة الإقناع في سياق الغيرة.	٦٨٣
المبحث الثاني: بلاغة الإقناع في سياق تطييب خاطر الزوجة .	٧٠٠
المبحث الثالث: بلاغة الإقناع في سياق الإرشاد والتعليم.	٧١٥
خاتمة البحث	٧٣٠
فهرس المصادر والمراجع بعد القرآن الكريم	٧٣٣
فهرس الموضوعات	٧٣٨